من الحاضرة الى الدّولة
في الإسلام الأول

تأليف

الدكتور ابراهيم بيضون





من الحاضرة الى الدولة
في الإسلام الاول

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع

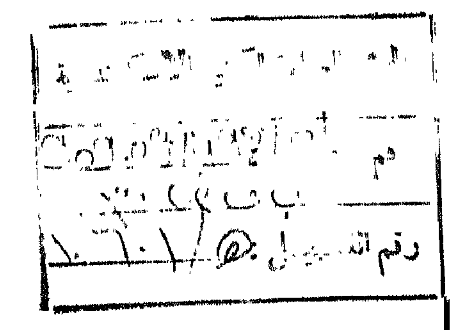
القاهرة

دار اقرأ
بيروت - الرملة البيضاء - سنتر ملكارت التجاري - ص. ب. ١٣٥٨١٨١ - هاتف: ٨٠٦٢٥٢

من الحاضرة الى الدولة

في الإسلام الاول

تأليف
الدكتور ابراهيم بيضون





دار اقرا

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى المجلس الثقافي للبنان الجنوبي
الذي لي شرف العضوية فيه
هذا المنبر الوطني الصامد
.. وإلى أمينه العام
الذي يحمله في الضلوع
وبين ضربات القلب
الأديب والمناضل والخلّاق
حبيب صادق
.. وإلى الزملاء في هيئته الإدارية
.. وإلى كل المساهمين بالعطاء والوقت
لتبقى هذه المؤسسة منبراً ساطعاً
للثقافة الوطنية والعربية



تقديـــم

لعل أكثر فترات التاريخ الاسلامي حـظوة لدى المؤرخـين، تلك التي كان محورها النبي ﷺ سيرةً وأخباراً شتى تتعلق بالهجـرة والصحيفة وعهود الصلح والمغازي وغيرهـا من أقوال وأفعـال، تطلّع إليها المسلمون نموذجاً أو قدوة في دينهم ودنياهم، إنطلاقاً من الآية الكريمة: ﴿لقد كـان لكم في رسول اللّه أسـوة حسنة لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخـر وذكر اللّه كثيـراً﴾[1]. فكان من الـطبيعي أن تطغى هـذه العلاقـة المحورية مع النبي ﷺ على أعمـال «المؤرخين» الأوائـل، من أمثال عـروة بن الـزبـير وابن شهـاب الزهـري وابن إسحاق والـواقدي وغيـرهـم كثيرين من الـرعيل الأول في التـأريـخ الإسـلامي[2]. وكـان تـوفّـر المـادة

(١) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٢) ذكـر «وستنفلد» سبعة وعشـرين «مؤرخاً» قبـل ابن اسحاق الـذي يعتبر من أشهر كتاب السيرة النبوية. راجع السيرة النبويـة لابن اسحاق تحقيق محمـد حميد اللّه (المقدمـة). المغرب ١٩٧٦. ولكن «هـوروفتز» تنـاول من كتب في المغازي فقط، متوقفـاً عند ابّـان بن عثمان وعـروة بن الزبـير وشرحبيـل بن سعـد ووهـب بن منبه وعبـد اللّه بن أبي بكر بن حـزم وعاصم بن عمـر بن قتـادة وابن شهاب الـزهري ومـوسى بن عقبة ومعمـر بن راشـد ومحمـد بن=

الواسعة عن فترة هامة، بل مصيرية في حياة العرب المسلمين، قد أسهم في تشجيع كُتّاب الأجيال المتعاقبة على متابعة هذا المحور بصورة أكثر تشعباً، مما جعل المكتبة التاريخية زاخرة بهذا النوع من الدراسات، التي لم تقتصر على الكتّاب العرب فقط، ولكن كان للمستشرقين دور أساسي، وربما ريادي في محاولة قراءة النصوص واستيعابها، وفق المنهج العلمي التحليلي، مما لا نجده إلا قليلاً لدى المؤرخين العرب.

وإذا كانت هذه المعطيات متوفرة عن الإسلام الأول - إذا جاز التعبير - فإن ثمة غموضاً، أو لنقل اضطراباً يحيط ببعض جوانب تلك المرحلة، سواء ما كان معاصراً لها أو سابقاً عليها، بعد أن تجاوزته الروايات التاريخية أو قللت من أهميته لسبب أو لآخر. فلا نجد مثلاً من التفاصيل في «العهد المكي» للدعوة، ما نجده في عهدها «المدني»، دون أن يتوفر لنا ما يُشبع الفضول إزاء قضايا عديدة تواجه الباحث، في معرض تتبعه لأوجه النشاط الديني والسياسي والاجتماعي الذي قام به النبي ﷺ وصحابته الأولون في مكة. ذلك أن بروز الوجه الديني لهذا العهد في الروايات التاريخية، قد لا يكون هو نفسه على الأرض، كون الممسكين بزمام الأمور في مكة، لم يتصدوا للدعوة من هذا المنطلق، ولكن من منطلق اقتصادي وسياسي في المقام الأول. ومن هنا يفترض بأن يكون هؤلاء قد تعرّفوا

= إسحاق وأبي معشر السندي والواقدي وابن سعد. راجع المغازي الأولى ومؤلفوها. ترجمة حسين نصار - القاهرة ١٩٤٩.

إلى تفصيلات غير دينية في الدعوة، عندما شهروا عليها الحرب، تلك التي انتهت إلى إخراج النبي ﷺ وأصحابه من مكة بعد نيف واثني عشر عاماً من المعاناة والإضطهاد.

ومن هذا المنظور، فإن الإسلام الذي وُلد في بيئة تجارية وعلائقية، يكاد يكون في الفصول الأولى غير ظاهر تماماً في روايات المؤرخين وأخبارهم، سواء قبل الدعوة أو قبل الهجرة. ولا نزعم هنا، بأنها حلقة مفقودة بين عهدين متناقضين في المعتقد والنظام السياسي والاجتماعي بوجه عام، ولكنها حلقة ضعيفة قياساً إلى عظمة الحدث الذي كرّس الانتقال من موقع إلى آخر ومن عصر إلى عصر. وذلك أن الإسلام لم ينزل كالصاعقة على المجتمع «الجاهلي» في مكة والحجاز، وينتقل به فجأة إلى التحضر، حيث كانت لهذا المجتمع قِيَمه الاجتماعية والاقتصادية التي لم يرفضها الإسلام قاطبة، بل استوعب الكثير منها، ولكن في ظلّ صياغة جديدة ورؤية حضارية مختلفة. ولعل فرادة الإسلام في هذا المجال، أنه لم يقم فوق ركام الحضارات السابقة، بل كان متفاعلاً معها بقدر ما تسمح به شخصيته الخاصة، التي انعكست عليها ملامح البيئة الحجازية، ومعها الدور المكّي المتألق لقرن سابق على الإسلام، مما يعني أن هذه الانطلاقة، كان لها دويّ تسرّب سريعاً إلى المدن والقرى والقبائل، التي كانت لمكة علاقات مستمرة معها. وقد نفسر هنا ذلك التوجه المبكر للدعوة نحو مراكز الاستقرار، وإعراضها عن التجمعات القبلية، بأنه توجّه حضري، تجلّت

صورته مع الإصرار على أن تكون مكة ذات الحيّز الاستقطابي الواسع، مقرّ الدعوة ومنطلقها إلى شبه الجزيرة، فالدائرة الأوسع من الأرض، بما يتوافق وطابعها العالمي والشمولي الذي اتّسمت به، وهي لا تزال محاولة متعثرة في مكة.

لقد مرّت الحاضرة الحجازية، استناداً إلى الأخباريين، بثلاث محطات بارزة قبل الاسلام، دون أن تكون إحداها منفصلة عن الأخرى، على الرغم من الاختلافات الجذرية بينها: الأولى، كانت المحطة الأهمّ على المستوى الحضاري، أعني بها «الحنيفية» التي رفدت من خلال موروثها الزاخر كل الحلقات اللاحقة، بما فيها الحلقة الكبرى المتوّجة بالإسلام. والثانية، كانت المحطة «الخزاعية» التي تبدو من خلال الروايات القليلة، وكأنها خروج من الحنيفية إلى الوثنية، ربما استجابة لتأثير القبائل المحيطة بمكة أو المتعاطية معها خارج الحجاز، حيث نسب لزعيمها عمرو بن لحيّ الخزاعي هذا الدور إثر نزوله مستشفياً في البلقاء ونقله عبادات القبائل فيها إلى مكة[٣]. أما المحطة الثالثة، فهي «القرشية»، المتزامنة مع تطورات هامة، سواء على صعيد التعديل الذي طرأ على خطوط التجارة في أعقاب احتدام الصراع الفارسي ـ البيزنطي، أو على صعيد التغيّرات التي أصابت اليمن وأدت إلى ضمور دورها في التجارة العالمية، تحت ضغط التدخل الخارجي

(٣) ابن الكلبي، كتاب الأصنام ص ١٩.

بأشكاله الدينية والاقتصادية والسياسية، مما دفع مكة حينذاك إلى تلقّف هذا الدور وممارسته بنجاح كبير.

والواقع أن عدة عناصر أسهمت في بلورة هذا الدور المكّي المتألق، إضافة إلى العناصر التي أشرنا إليها، حيث لا نستطيع كذلك إغفال المسألة الدينية وما كان للكعبة أو «البيت» من تأثير استقطابي واسع، وكذلك المسألة الجغرافية المتكاملة مع سابقتها، حيث كان لموقع مكة الوسطي بين منابع السلع وأسواقها، الدور الكبير في انتقالها من سوق محلية للبدو إلى قاعدة للتجارة العالمية، وما جرّ إليه هذا الموقع من تغيرات، أمكن للحاضرة الحجازية استيعابها على المستويين التنظيمي المحلي والعلائقي الخارجي. فكانت «دار الندوة» في الداخل، الأداة التنظيمية الفريدة، والمسيّرة بكثير من التوازن شؤونها الاجتماعية والاقتصادية. وكان «الإيلاف»، حيث سارت قافلة لقريش أو انتهت إلى سوق في اليمن أو الشام أو العراق، القوة المحرّكة لدار الندوة والإطار الذي يحتض الدور القرشي و«شرعيته» لدى القوى السياسية والقبلية في المنطقة.

وإذا كانت العلاقة غير واضحة تماماً بين «دار الندوة» و «الإيلاف» في روايات الاخباريين، فإن ما شهدته مكة من تطورات في الربع الأخير من القرن السادس الميلادي، لا يدع مجالاً للشك بهذه العلاقة التي بدت عضوية، منذ اهتزاز «الإيلاف» خلال الحرب الفارسية البيزنطية، وانعكاسه على «دار الندوة» التي بدت معطلة أو كادت في ذلك الوقت. وقد

أتاح ذلك لفريق من قريش، معتمد على موقعه الاقتصادي المتميز، بأن يخترق المعادلة القائمة في مكة منذ عهد هاشم بن عبد مناف (مؤسس الإيلاف)، وأن يضرب صيغتها الجماعية التي أعطت لكافة البطون حق المساهمة فيها، كل حسب امكاناته. ومن هذا المنظور، فإن مكة تنفرد عن مراكز الاستقرار الأخرى في الحجاز، بأن الصراع الداخلي فيها يتخذ سمةً اجتماعية أكثر منها قبلية، حيث كان «حلف المطيّبين» الذي انتقلت إليه السلطة الفعلية، بعد ضمور دور «الإيلاف» ومعه «دار الندوة»، يضمّ كبار التجار من عبد شمس (أبو سفيان) وهاشم (أبو لهب) ومخزوم (أبو جهل)، فضلاً عن شخصيات مالية ارتبطت مصالحها معه، معارضة مواقف بطونها من هذا الحلف.

ولكن استئثار قلة بالثروة في مكة، وما أدىّ إليه ذلك من شرخٍ في مجتمع المدنية، لم يصب وضعها الاقتصادي فقط، ولكنه مسّ القيم والتقاليد الاجتماعية.. هذا الاستئثار لم يلبث أن حرّك «الرأي العام» المكي، متخذاً من حادثة التاجر اليمني[٤] سبيلاً إلى إعادة تقويم الوضع الذي اختّل على يد «حلف المطيبين»، مما أدى إلى ظهور «حلف الفضول» الذي كان أحد أبرز الأحداث السابقة على الإسلام، دون أن يكون

(٤) قيل أن رجلاً من زبيد باليمن قد باع سلعة من العاص بن وائل السهمي، فماطله في ثمنها دون أن ينتصر له أحد من قريش. مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٠.

في مضامينه الاجتماعية والاقتصادية، منفصلاً عن المناخ الـذي أخذ يتبدل في الشكل والعمق بعد سنوات قليلة.

لقـد ترافق «حلف الفضـول» مـع أحـداث غـير عـاديـة في المنطقة، بـدءاً بمحاولـة الأحباش غـزو مكة، تمهيـداً للاتصـال بمراكز نفوذ البيزنطيين في الشام، ومروراً بمحـاولة هؤلاء التسلّل إلى الحاضرة الحجـازية والسيـطرة المباشـرة عليها. وعـلى الرغم من إخفـاق المحاولتـين وخروج مكـة وتجارتهـا سـالمـة من هـذه المحنة، فإن ثمة أمراً لا يمكن إغفـاله، هـو أن مكة التي كـانت على اتصال دائم بهاتين الدولتين، فضلاً عن الدولة الساسانية، كانت تتلقى أيضاً مؤثرات هذه الـدول، الدينيـة والثقافيـة، مما أوجد عشية الدعوة مناخاً معينـاً، تجاوز البحث في ظله المسألة التجارية وتعزيز الوضع الاجتماعي «التكافلي»، إلى ما هـو أكثر خطورة وملامسة للقضايا الحيوية، بما فيهـا القضية الـدينية التي أصبحت مـوضع نقـاش وسط تلك المؤثـرات المبـاشـرة أم غـير المباشرة، التي أشاعت على مـا يبدو نـوعاً من القلق الفكـري - إذا جاز التعبير - المصحوب بحالاتٍ تأملية في الكـون وأسراره، كان يستغرق فيهـا عدد من المتنـورين من أمثال: زيـد بن عمرو ابن نفيـل وورقة بن نـوفل وعثمـان بن الحويـرث وعبد اللّه بن رئاب، وآخرون استـولى عليهم القلق في خلواتهم استنـاداً إلى رواية ابن إسحاق[٥].

---

(٥) كتاب السير والمغازي ص ١١٥.

ولكن مكة شهدت حينذاك من كان أكثر اختلاءً بنفسه التي ظلّت نقية، على الرغم من اندراج صاحبها عضواً فاعلاً في المجتمع (الذهاب تاجراً إلى الشام والدفاع عن مكة في حروب الفجار والمشاركة في حلف الفضول. . .). ولعل هذا التأكيد الذي تجلى حينذاك من جانب النبي ﷺ على دور مكة في دعوته، أخذ يترسخ مع التلاؤم المستمر بين الاثنتين، انطلاقاً من أن الأولى مثّلت بالنسبة للثانية، المدخل العريض إلى شبه الجزيرة كما سبقت الاشارة. ولكن مكة، الحريصة على موقعها القيادي، على الرغم من الوهن الذي أصابها في أعقاب المتغيرات السياسية في المنطقة، خذلت النبي ﷺ والمسلمين الأوائل،قبل أن يجدوا في يثرب (المدينة) معطيات ربما وضعتها على مستوى متكافىء مع مكة، وفي طليعتها، الموقع الجغرافي على طريق الشام، وما يمكن أن يؤدي إلى تعزيز الوضع الاقتصادي للدولة الصاعدة في المدينة وعرقلة التجارة القرشية، فضلاً عن المعطيات الحيوية الأخرى، سواء كانت اقتصادية تتعلق بخصوبة الأرض ووفرة الماء ووجود بعض المواد الأولية، أو كانت اجتماعية ينعكس عليها التكوين السكاني المضطرب، الذي جعل من المدينة ساحة للصراع العربي - العربي أو العربي - اليهودي، دون الانتهاء عند المعطيات الدينية، حيث كانت الظروف أكثر نضجاً من مكة، كون المدينة على تماس مباشر مع المؤثرات الدينية والحضارية، محلية كانت (اليهود) أو شامية (البيزنطيون).

وهكذا، فإن «الهجرة» إلى يثرب، كانت المنعطف الأكثر أهمية في تاريخ الدعوة الإسلامية، التي انتقلت من «دار الاضطهاد» إلى «دار الجماعة»، بما يعنيه الفارق بين الأولى التي عاش فيها المسلمون أقلية ملاحقة من جانب أقلية حاكمة، وبين الثانية التي كانت أولى منجزاتها، ما عُرف بـ «الجماعة الإسلامية» أو جمهور الدولة الجديدة، المتطهّر من أدران الوثنية والعصبية والاستغلال. وما لبثت هذه «الجماعة» أن التصقت بالهجرة وأصبحت مرادفة لها، كما ترادفت كلتاهما مع التحضّر الذي نحت إليه الدعوة منذ انطلاقتها، وتكرّس خطّاً سياسياً واجتماعياً في مرحلة الدولة. ومن هذا المنظور، فإن الصراع الحجازي لم ينحصر فقط بين التوحيد والوثنية، ولكنه كان صراعاً بين التحضّر المقرون بالدولة وبين البداوة التي جسدها «الملأ» وشيوخه التجار. ولذلك كان التوازن مضطرباً على صعيد الوقت، الذي كان يميل بداهة لمصلحة الدولة، في وقت خاضت فيه الأخيرة معركة ذكية على عدة جبهات، سواء الداخلية (المؤاخاة ـ المنافقون ـ اليهود) أو الحجازية (الحصار الاقتصادي لمكة وتهديد أمن التجارة ـ ضرب القوة العسكرية لقريش وتحقيق انتصار سياسي عليها في الحديبية) أو الخارجية (الاتصال بالملوك والأمراء ورؤساء القبائل وكسر التوازن الاقليمي في المنطقة الخ . .).

والواقع إن «غزوة الأحزاب» كانت منعطفاً هاماً في الصراع الاسلامي ـ الوثني، حيث كانت هذه الغزوة معقد آمال

القرشيين وأقصى ما استطاعوه من تعبئة للإطاحة بالدولة الفتية في المدينة. ولذلك فإن الفشل الذي واجهته مكة كان مدّمراً، وبالتالي كان إيذاناً باقتراب سقوط الوثنية وسلطة التجار فيها، وكان حافزاً في المقابل للدولة بأن تتقدم بخطوات سريعة لحسم الوضع الحجازي، تجلت في «غزوة خيبر» التي لم تطرح فقط الموقف من اليهود في الحجاز، ولكن من القبائل العربية المتنصّرة على التخوم، كما تجلّت في «اتفاق الحديبية»، فضلاً عن «حملة مؤتة» التي كشفت مبكراً المشروع السياسي للدولة الاسلامية في بلاد الشام. فقد كانت هذه الحملة ـ خارج نطاق المبالغات والسرديات اللتين أحاطتا بها في المرويات القديمة والكتابات الحديثة والمعاصرة ـ أحد أهم المنجزات التي حققتها الدولة في منطقة شديدة الحيوية، حيث تمّت في وقت كان البيزنطيون دائبين على ترتيب أوضاعهم مجدداً، بعد اهتزازها أبّان الحرب مع الفرس، بينما كان النبي ﷺ حريصاً على رفض العودة إلى الواقع القديم، حرصه على «استعادة» القبائل العربية «الشامية» من الفلك البيزنطي، وإشعارها بأن قوة عربية قامت على تخومها في ظلّ الإسلام.

.. وبعدُ، فقد توخيت من هذه المقدمة الطويلة، أن أضع القارىء في أجواء تلك المرحلة ـ المنعطف من تاريخ العرب والإسلام، الممتدة على مسافةٍ من القرن السادس ومسافةٍ أقل من القرن السابع الميلاديين، ما بين مرحلة «الإيلاف» الفريدة ونضوج المشروع السياسي للدولة الإسلامية، حيث كانت

«مؤتة» مؤشراً بارزاً فيه، وإرهاصاً لحركة الفتوح التي تبلورت في العهد الراشدي المبكر، واعتُبرت الانجاز الأعظم في الإسلام، بعد «الهجرة» إلى المدينة.

وقد ضمّ هذا الكتاب ثلاثة أبحاث، تجمع بينها عدة قواسم مشتركة، منها وحدة الموضوع الذي تتكامل فيه خطوط المرحلة التاريخية الهامة التي أشرنا إليها، ووحدة المناسبة إلى حدٍّ ما، حيث القيت هذه الأبحاث في الأردن خلال زيارتين قمت بهما في العامين ١٩٨٤ و ١٩٨٥.

أما البحث الأول فهو «الإيلاف والسلطة في مكة قبل الإسلام»، وقد أُلقي بدعوة من أساتذة الدائرة الانسانية في جامعة اليرموك، قبل أن تنشره لاحقاً مجلة «دراسات» الصادرة عن الجامعة اللبنانية. والبحث الثاني يحمل عنوان «تكوّن الدولة الاسلامية في المدينة: البداية والنموذج»، وقد أُلقي بدعوة من المنتدى الثقافي في إربد، ونُشر في مجلة العرفان (لبنان)، والبحث الثالث والأخير، هو «حملة مؤتة، مقاربة للمشروع السياسي الأول للدولة الإسلامية في بلاد الشام»، كان اسهاماً في اعمال الندوة الثانية للمؤتمر الرابع لبلاد الشام، الذي عقد في الجامعة الاردنية (آذار ١٩٨٥).

وإذا كان لي من كلمة شكر في ختام هذه المقدمة، فلا بدّ من توجيهها إلى زملائي الاصدقاء في جامعة اليرموك والجامعة الاردنية، الذين كان لهم الفضل في إخراج هذه الأبحاث إلى

النـور، دون أن أنسى الصديق الـدكتـور رضـوان السيـد عـلى تعـاونه الـطيب وعلى تشجيعـه بأن أصـدرها في هـذا الكتاب، وكـذلك «دار إقـرأ» التي وجدت فيهـا دائماً الاستجـابة والحـافز العلمي . . فإلى هؤلاء جميعاً كل التقدير.

بيروت في ٣ / ١ / ١٩٨٦ إبراهيم بيضون

«الإيـــلاف»
والسلطة في مكة قبل الإسلام

قد يبدو شائكاً بل غير ممكن بحث مسألة السلطة في مكة، أو أي شكل من أشكالها قبل الإسلام، في معزل عن حركة التجارة، تلك القوة الدافعة لأوجه النشاط الاجتماعي والعلائقي بين قريش ومختلف القوى القبلية والدولية، سواء في مكة، أو على امتداد خطوط القوافل الطويلة والمتشعبة. فقد أحدثت التجارة - التي أصبحت حرفة المجتمع بكافة فئاته - تحوّلاً غير عادي في الحياة الحجازية العامة، لا سيما خلال القرن السادس الميلادي، حيث المحطة الكبرى - أي مكة - تصبّ فيها منتجات الشرق، وتتقاطع عبرها الطرق، ما بين الأسواق ومنابع السلع، وحيث العديد من القبائل تخلّى عن الارتحال والتنقل، واعتمد على مصادر مستقرة للارتزاق والكسب. هذا الاختراق للثوابت القبلية، ما كان يحدث لولا ذلك التعديل الجغرافي لخطوط التجارة، تحت ضغط المتغيرات السياسية من جهة، ولو لم تستطع قريش من جهة أخرى، اقناع قبائل الحجاز وحدود الشام والعراق، بفائدة ترك الطريق التجاري

مفتوحاً[١]، أي بتحييده عن صراعات المنطقة الشمالية. فبعد هجرة التجارة من العراق الذي أصبح لحين شريانها الحيوي، ما بين الخليج وأسواق البحر المتوسط[٢]، تلقفّ الحجاز هذه الهجرة، ولكن دون أن يفقد الخليج أهميته التجارية، معوّضاً بذلك على الفرس، الأضرار الناجمة عن هذا التحوّل، الذي كان من الواضح أنه تمّ لمصلحة البيزنطيين، الذين يسيطرون على أسواق الشام، بعد أن ضاقوا بالهيمنة الفارسية والضرائب المتصاعدة[٣] على الطريق القديمة، الدائرة في فلك الاعداء التقليديين.

ولكن لماذا مكة. وهي «واد غير ذي زرع»[٤] كما ورد في القرآن الكريم، «وبلد قحط»[٥] حسب المقدسي، «وخالية من الماء والأنيس»[٦] كما قال الأزرقي، تلك المستفيدة بصورة مركزية من هذه التطورات الهامة؟ ولعل البحث في هذا التساؤل، يضعنا أمام عدة معطيات، دون أن نتجاهل العمق

---

(١) رضوان السيد، من الشعوب والقبائل إلى الأمة، مجلة الوحدة، ص ٢٤ عدد ٤ ـ بيروت ١٩٨٠.

(٢) H. Lammens, La mécque à la veille de l'Hegire, p 40.

(٣) C. H. DIEHL, Byzance, grandeur et décadence, p 95.

(٤) ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربّنا لتقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم يشكرون﴾ سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم ص ١٠٣.

(٦) أخبار مكة ج ١ ص ٥٧.

التاريخي لهذا الموقع، الذي لم يحدث بصورة انقلابية[٧] حيث التجارة ـ الداخلية على الأقل ـ قديمة العهد فيها، قدم الكعبة والسوق التبادلية المحلية، التي كانت ترتادها منذ وقت مبكر القبائل المجاورة[٨].

ولذلك فإن انتقالها إلى الصدارة، مرتبط بالعناصر الثلاثة التالية:

الأول: ديني، انطلاقاً من «البيت» أو الكعبة، **والثاني**: جغرافي، فرضته الوسطية الملائمة، على نحو تجاوز المحطات التجارية السابقة (البتراء ـ تدمر. . .)، **والثالث: تنظيمي**، جسّده «الإيلاف» الذي مثل القوة الخفية، أو السلطة ـ الظل، المحرّكة للشأن الحياتي، كما الشؤون الأخرى، سواء في مكة أو في مراكز النفوذ التابعة لها.

وهكذا كانت المتغيرات السياسية مصحوبة بمتغيرات بارزة على الصعيد الجغرافي ـ الاقتصادي، في وقت ربما تزامنت فيه «هجرة» التجارة إلى الجنوب، مع صعود مواقعها في شبه الجزيرة نحو الشمال، متأثرة بالتحرك القبلي، الذي أفرزته الاضطرابات السياسية والاقتصادية في اليمن بعد ازدياد

---

(٧) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في اشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري ص ٦١.

(٨) راجع خبر زيارة تبع الحميري وحمله الكسوة للكعبة وطوافه حول البيت في: ابن اسحاق، كتاب السير والمغازي ص ٥٢ ـ ٥٣.

التدخل الأجنبي[٩]. على أن ما يستلفت الانتباه أن شهرة مكة كانت مدينة أيضاً لنمو الطريق البري، الذي يبدو أن «الانباط» أول المساهمين في تنشيطه، مما جعلهم أساتذة المكيين في هذا المجال[١٠]، دون أن يكون للبحر الأحمر إلا النصيب القليل من تجارة الشرق، ذلك الذي ينتهي إلى المرافىء المصرية أو الحبشية، مكرّساً دوره التقليدي الذي ارتبط بمصالح القوى السياسية المسيطرة على مصر. وفي المقابل فإن الطريق البحري، انتهى أو كاد عند موانىء البحر العربي، لا سيما عدن التي وصفها اليعقوبي في «بلدانه»، بأنها «ساحل صنعاء وبها مرفأ مراكب الصين»[١١]، بحيث يصبح برياً مع انعطافه الشمالي، المتعرّج والمستقيم، وذلك استجابة للمحطات التي تفرض هذا الالتواء بما تملكه من خصائص معينة، وفي طليعتها وجود الماء.

وهكذا تتخذ تجارة البحر الأحمر ذلك الطابع الاقليمي، متراجعة أهميته الملاحية في أعقاب انهيار امبراطورية الرومان[١٢]، ومتحوّلاً بعد ذلك إلى ما يشبه البحيرة المغلقة، التي تؤمّن المصالح المحدودة لدولة ثانوية (الأحباش)، بعد أن

---

(٩) السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٤١ ـ ٥١.

(١٠) ابن الكلبي، كتاب الأصنام ص ٨. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٣ ص ١٤، ٤٩.

(١١) كتاب البلدان ص ٣٠٩.

(١٢) C. H. DIEHL, Byzance. P 89

صبّ البيزنطيون (المسيطرون على مصر) اهتمامهم على الأسواق الشامية. وإذا ما أضفنا إلى ذلك، ركود الحركة في الجزء الشمالي منه، نتيجة العوائق الطبيعية أو الأمنية(١٣)، فإننا ندرك أهمية الطريق البرّي، وبالتالي أهمية الحاضرة الحجازية، التي تألّقت حينذاك، واتسعت نفوذاً كما الدوائر المائية المتتابعة، لتصبح الحلقة المركزية، لما كان يُعرف بتجارة الشرق الذائعة الشهرة.

وكان لا بد أن يفرض هذا الدور على مكة مسؤولية كبيرة، بدءاً باستيعاب متطلبات السوق الداخلية وتأمين ما يجتذب التجار ويشجعهم على ارتيادها، دون الانتهاء عند «الاسطول البري» ـ إذا جاز التعبير ـ الذي لم يقتصر على تجارة قريش، ولكنه استخدم لنقل بضائع لا تعود بالضرورة للسوق المكية. على أن هذه الحاضرة الكبرى، التي وصفها لامنس بأنها «تقع على مفترق طرق العطور والتوابل والقوافل التجارية بين الخليج وفارس والحبشة واليمن وسوريا»(١٤) كان من العسير جداً أن تتبوأ هذا الموقع وأن تحافظ عليه، دون قوة ذاتية؛ أو بمعنى ما، دون سلطة سياسية ترعى شؤونها في الداخل وتنظّم علاقاتها الواسعة مع الخارج. ولعل البحث عن هذا الحضور السلطوي، أو عن هذا «الظل»، كون السلطة لم تكن ظاهرة

---

(١٣) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية ص ٥٦.

(١٤) H. LAMMENS, La République marchande de la Mécque vers L'an 600 de notre ère. P 51. Bulletin de L'institut Egyptien, Tome IV.

تماماً في المجتمع المكي، يقتضينا العودة إلى الانجاز الأهمّ لقريش أي «الإيلاف» الذي كان القوة الدافعة في النهوض المكي، مستوعبة البداوة إلى جانب التحضر، في وقت كانت «تجارة قريش لا تعدو مكة» حسب رواية اليعقوبي[١٥]. فقد اكتسبت هذا النظام تدريجياً، ليس صفة السلطة أو ظلّها فقط، ولكنه اتسم أيضاً بالشرعية التي بلغت حدود التقديس في بعض الأحيان، حيث القرار القرشي كان يستمد قوته على المستويين المكي والحجازي، بما يفوق القرار المحلي «لـ«دار الندوة» التي انتهت إلى الركود وفقدان الدور في الربع الأخير من القرن السادس، بينما استمر «الإيلاف» قائماً بقدر ما كانت الحاجة ماسة إلى وجوده كضرورة اقتصادية.

وعلى الرغم من اسبقية دار الندوة على «الإيلاف»، فإن الأخير جسّد الصورة اللامركزية للسلطة في مكة، بينما ظلّت الأولى قرشية الطابع والاهتمام، دون أن يبلغ قرارها حدود التقديس أو الالتزام، إلا إذا اقترن بالإرادة الجماعية. ومن هذا المنظور فقد عكست «دار الندوة» طبيعة النظام التجاري شبه التعاوني، القائم على تعايش البطون القرشية التي بلغت حداً من التماسك والوحدة الاجتماعية، وذلك في إطار صيغة «التكافل» التي كانت أهم مرتكزات الإيلاف في وقت لاحق.

والواقع أن «دار الندوة»، شديدة الالتصاق بالتاريخ

---

(١٥) تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٤٢.

السياسي ـ الحضاري لمكة، حيث كانت أولى منجزات العصر القرشي، الذي اقترن بشخصية قصيّ بن كلاب، ولكن دون أن يكون وحده صانع هذا الدور الكبير، الذي كان محصّلاً لمنعطفين سابقين، أو ما يمكن أن نسميه بالمرحلة الحنيفية، وما مثلته من أهمية دينية[١٦]، على الرغم من افتقاد حلقاتها القديمة، والمرحلة الخزاعية التي يبدو أنها عاصرت أحداثاً غير عادية، سواء على الصعيد الديني أم التجاري[١٧]، وما مثلته من بداية الاستقطاب الواسع الذي تتوّج أخيراً بالمرحلة القرشية، المتزامنة مع انكفاء الدور اليمني في الجنوب.

إن ثمة اتفاقاً لدى المرويات، على الدور المبدئي لدار الندوة، كمجلس استشاري وأداة تنظيمية. فالطبري يوجز وصفها بقوله: «وفيها كانت قريش تقضي أمورها» بينما الأزرقي، وهو متقدم عليه قليلاً، كان أكثر وضوحاً وشمولية في قوله: «فحاز قصيّ شرف مكة وأنشأ «دار الندوة» وفيها كانت قريش تقضي أمورها، ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلا ابن أربعين سنة للمشورة، وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون»[١٨]. وكذلك البلاذري فقد حدّد مهامها بقوله:

---

(١٦) المسعودي، مروج الذهب ج ٢ ص ١٨ ـ ١٩ دار الأندلس، بيروت ١٩٧٣.

(١٧) الكلبي، كتاب الأصنام ص ١٩. السهيلي، الروض ج ١ ص ١٠٢، ١٣٧.

(١٨) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٥٩. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر ١٩٦١.

«وكانوا ينتدون اليها فيتحدثون ويتشاورن ويزوجون من أراد التزويج»[19]. ومن الواضح استناداً إلى النصوص الثلاثة، أن الدور الاستشاري كان اللافت في تركيب «دار الندوة»، مما يعطي لهذه الصفة بُعداً تقاطعياً مع «التكافل» الايلافي الذي كان من أبرز عوامل التفوق التجاري، وبالتالي فقد أسهم في تغطية الكثير من جوانب النقص في المجتمع المكي، بالمقارنة مع الحواضر الحجازية الأخرى. أما من الناحية التنظيمية فقد أعطى مؤسسها لنفسه حق التنفيذ وامتياز الوراثة، من خلال الاشتراط للعضوية من تجاوز الأربعين، ولكن دون أن يجري ذلك على أبنائه. أي أن هذا الحق اقتصر على ذوي النفوذ أو «الندى»، الذين بلغوا في موقعهم الاجتماعي والاقتصادي حدّاً يمكّنهم من «الانتداء»[20] إلى هذا المجلس والتشاور في الأمور الخاصة والعامة.

وهكذا فإن هذه الهيئة الاستشارية التي يُفترض أن يتّسع التمثيل فيها لكافة الفئات الاجتماعية في مكة، على غرار ما عرفته بعض المجتمعات القديمة، لا سيما الاغريقية، توقفت العضوية فيها عند شرطين: السنّ والانتماء، وذلك من حيث المبدأ، لأن ثمة تعديلات طرأت عليها مع أحفاد قصيّ، ولا سيما على الشرط الثاني منها، بعد أن أصبح للعامل الاقتصادي الدور التقويمي الأول في تحديد مكانة الفرد ونفوذه

---

(١٩) اخبار مكة ج ١ ص ١٩.

(٢٠) البلاذري، أنساب الأشراف ج ١ ص ٥٢، بيروت ١٩٧٩.

في مكة. ذلك أن نمو التجارة وما رافقه من ثراء غير عادي، أدّى إلى تمزيق وحدة القبيلة، فضلاً عن البطون، لتصبح العلاقة واضحة بين الدخل والوضع الاجتماعي. وقد يشذّ عن هذه القاعدة بصورة ما، بنو هاشم الذين احتفظوا بالزعامة بعد عبد المطلب على الرغم من تراجع نفوذهم الاقتصادي، إلا أنها كانت زعامة أدبية أكثر منها سياسية. ولم يحل ذلك دون ظهور زعامات مستجدة، فرضت نفسها نتيجة لتفوقها التجاري، كبني أمية وبني نوفل وبني أسد، الذين شكّلوا ما عرف بحلف «المطيبين»[٢١]،أحد أهم مراكز النفوذ في مكة عشية الإسلام. ولم يحل هذا الوضع أيضاً دون بروز أفراد تجاوزوا حدود الأسرة (البطن)، في التأثير السياسي والمعنوي، كعبد الله بن جدعان الذي ينتمي إلى تيم، محققاً لنفسه بفضل ثرائه الواسع، مكانة في «الملأ» ـ أي الأداة التنفيذية من حيث المبدأ المنبثقة عن دار الندوة ـ وفي المجتمع المكي لم تصل إليها عشيرته[٢٢].

ولكن ثمة ظاهرة لافتة لدار الندوة، هي أن التفاوت في النفوذ، لم يؤد إلى زعزعة النظام الذي احتفظ حنيذاك بحدٍ معين من التماسك وتجنّب الصراعات المحلية، حيث التجارة شكلت دائماً القاسم المشترك بين مختلف البطون القرشية، والخيار الوحيد لتلك البيئة القاسية الجرداء. على أن غموضاً

---

(٢١) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٧.

(٢٢) المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٣. الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ١ ص ١٥١.

هنا يحيط بـ «الملاء» ودوره في تحقيق هـذا التوازن، انـطلاقاً من السلطة شبـه التقريـرية لهـذا المجلس. ولعل هـذا الغمـوض، يتصل أكثر ما يتصل بالعلاقة مع «دار النـدوة»، حيث تتقاطـع المهـام أو تتداخـل إلى الحدّ الـذي يصبح فيـه «المـلأ»، صـورة أخرى لدار الندوة، خاصة وأن المرويات خلت من الاشارة إلى رئاسته، خلافاً للأخيرة التي تولاها بنو عبد الدار[٢٣]،وإن كان ذلك لا يمنع من سيطرة هؤلاء على المجلسين معاً، انـطلاقاً من هـذا التداخـل أو هذه التبعيـة. أما عضـوية «المـلأ» فمن غير الواضح إذا كانت مصحوبـة بشروط مـا على غـرار دار الندوة، وإن كان ذلك يفترض اختلافاً عنها من الناحية التمثيلية، حيث كـان زعماء البـطون مشاركـين في هذا المجلس، ولكن في ظـلّ نفوذ متفاوت. أما وظائفه الأساسيـة، فقد كانت ستّاً[٢٤] في عهد قصيّ، ثم ازدادت[٢٥] قبيـل الإسلام، استجـابة لتـطور أوضاع المدينة وظهور فروع مستجدة من قريش، التي يفترض انتماؤها لـ «البطاح» دون «الظواهر»، الذين كانوا عـلى الأرجح خـارج «الملأ» واقتصر دورهم على الشؤون الدفاعية[٢٦]. على أن «الملأ»

---

(٢٣) السهيلي، الروض ج ١ ص ١٥٤.

(٢٤) السقاية، الرفادة، القيادة، الندوة، اللواء. الأزرقي، أخبـار مكة ج ١ ص ١٠٩ - ١١٢.

(٢٥) أضيفت اليها: المشورة، السفارة، الأشناق، الأيسار، القبة والأعنـة. وربما توحدت القيادة مع اللواء، حيث وردت بأكملها عشر لدى ابن عبد ربـه في العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٢٦) المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٢.

شـأن «دار الندوة»، تعـرض بعد ذلـك لتعـديـل سلطوي مـع تراجع دوره المعنوي، أمام سيطرة المال، وتمثيلي بعد دخول بني الحارث[٢٧] (من قريش الظواهر) إليه، ربما لاعتبارات اقتصادية أيضاً.

وكـانت هذه الـوظائف جميعهـا موحّدة في قبضـة قصيّ[٢٨]، الذي أمسك بالسلطة التامة بما في ذلك «الملاء»، قبل أن ترتبط بمراكز النفوذ التجاري بعـد غيابـه، دون أن يكون لأسـرةٍ ما أو لزعيم ذلك الذي استأثر به، مؤسس مكـة القرشيـة. ويبدو أن هذا الأخير كان يرغب في تحويل هذا الواقـع إلى تقليد وراثي، مهيئاً ابنه البكر (عبد الدار) لزعامة مكة من بعده، على رغم ما يُشـار إلى ضعفٍ في شخصيته[٢٩] وتفـوق أخوتـه عليه،لا سيـما عبد مناف الذي برز في حياة أبيه وبدا أكثر جـدارة بالـزعامـة، حسب رواية الطبري. على أن الأزرقي نحا اتجاهاً آخر في رواية انتقال السلطة التي بدت وكـأنها تمت وفق تدبـير مسبق، شارك فيه قصي، حيث وزعها مناصفةً بين عبد الدار وعبد مناف، مع ميـل إلى الأول حسب قـولـه[٣٠]. عـلى أن غيـــاب قصي، رغم الترتيبات المشـار إليها، كـان يحمل معـه تفجير أزمـة الحكم في مكـة، خاصـة وأن الخليفة المفتـرض (عبد الـدار) لم ينجـح في

---

(٢٧) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٧.
(٢٨) الأزرقي، أخبار مكة ج ١ ص ١٩.
(٢٩) الطبري ج ٢ ص ١٨٤ البلاذري، أنساب ج ١ ص ٥٣.
(٣٠) أخبار مكة ج ١ ص ١١٠.

ملء فراغه ومواجهة تنافس الأخوة الأقوياء. ولم يكد يمر سوى القليل من الوقت، حتى قام أبناء عبد مناف، الذين ورثوا نفوذ الأخير وطموحه، بانقلابهم ضد بني عبد الدار وانتزعوا منهم السلطة الفعلية ،وذلك بزعامة كبيرهم عبد شمس [٣١]. ولعل هذه المرحلة شكّلت منعطفاً بارزاً في تكوين الشخصية التجارية لمكة، التي بدأت ملامحها الأولى في الظهور، متزامنة مع اضطراب العلاقات الساسانية ـ البيزنطية، وما رافقها من إغلاق طريق العراق أو ركوده، ومن ازدهار المواصلات البرية بين اليمن والشام والخليج.

بيد أن هذه الحركة لم تحقق عودة الحكم الفردي إلى مكة، ولكنها أسهمت في تكريس صيغة جديدة انتهت إلى حكم «الأقلية» في أواخر العهد القرشي، بعد أن اتّسمت بالكثير من المرونة ومن «التكافلية» في المرحلة الأولى منه. على أن الجانب الأهم منها ارتبط بتطورات التجارة، التي كان لها انعكاس واضح على القرار الجريء الذي اتخذه بنو عبد مناف باعلان «الإيلاف»[٣٢]، حيث كان ذلك قمة ما وصلت إليه الابداعية القرشية في الاستقطاب وصناعة العلاقات المصلحية.

---

(٣١) الطبري ج ٢ ص ١٨٠.

(٣٢)ورد في لسان العرب لابن منظور أن الإيلاف من «ألفت الشيء وآلفته بمعنى واحد لزمته، فهو مؤلف ومألوف». كما ورد بمعنى يؤلف أو يجهز ج ٩ ص ١٠. وقد ترادف عند الطبري مع العهود (ج ٢ ص ١٨٠) التي تلتقي في السياق القرآني مع الآية الكريمة ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ سورة آل عمران (١٠٣).

ولقد أشار الطبري إلى المعاهدات التي قام بإنجازها أركان هذه الحركة، مع مراكز النفوذ الكبرى خارج الحجاز بقوله: «فكانوا أول من أخذ لقريش العصم[٣٣] فانتشروا في الحرم. أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الشام الروم والغساسنة، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الأكبر، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن[٣٤]. ولم تلبث هذه العهود «الإيلافية»، أن اتخذت طريقها إلى التنفيذ مع تسيير «رحلتي الشتاء والصيف»[٣٥]، وذلك وسط تأييد عريض من جانب البطون القرشية التي تحمست لهذه الخطوة التعاونية، الهادفة إلى تحقيق حد معين من التكافل الاجتماعي والاقتصادي في مكة.

ولعل الأبيات المنسوبة لمطرود بن كعب الخزاعي، تجسّد لنا هذا الاتجاه التعاوني الذي انطوت عليه مبادىء «الإيلاف»، على الرغم من الحضور القوي لمؤسسه الحقيقي هاشم[٣٦] حيث يقول:

(٣٣) الجبال ويراد بها العهود. الطبري ج ٢ ص ١٨٠.

(٣٤) المكان نفسه.

(٣٥) المكان نفسه.

(٣٦) اسمه في الأصل عمرو ثم اكتسب لاسمه الجديد هاشم إثر أزمة غذائية تعرضت لها مكة فخرج حسب المرويات «إلى الشام فامر بخبر كبير فخُبز له، فحمله في الفرائر على الإبل حتى وافى مكة فهشّم ذلك الخبز يعني=

يـا أيها الـرجل المحـوّل رحله
هـلّا نـزلتَ بـآل عبـد منـاف
هبلتك أمك لـو نزلت بحيهم
ضمنوك من جوع ومن اقراف
الآخـذون العهـد من آفـاقهـا
والـراحلون لـرحلة الايـلاف
والمطعمون إذا الرياح تناوحت
حتى تغيب الشمس في الرجّاف
والخـالـطون غنيهم بفقيـرهم
حتى يكون فقيرهم كالكافي(٣٧)

وإذا كان المضمون الاجتماعي ـ الاقتصادي أكثر وضوحاً في «الإيلاف»، فإن الجانب السياسي منه ليس كثير الابهام، حيث السلطة المطلقة تداولها بنـو عبد منـاف بصورة وراثيـة (هاشم، عبد المطلب، أبو طالب). ولكن دوره كان بالغ الأهمية في كبح النـزعة الفـردية للسلطة وتحـديد اطـارها السيـاسي الاحتوائي، ومنع ظهور جيوب سلطوية تتعارض مع «دار النـدوة». على أن هذا النظام الذي فرضته طبيعة المجتمـع التجاري والحـاجة إلى

= كسره وثرّده، ونحر تلك الإبل... فأشبع أهل مكة» ابن سعـد، الطبقـات ج ١ ص ٧٥ ـ ٧٦ الطبري ج ٢ ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٣٧) البلاذري، أنساب ج ١ ص ٦٠، المسعـودي مـروج ج ٢ ص ٣٣ راجـع أيضـاً سورة قـريش في القـرآن الكـريم ﴿لإيـلاف قـريش إيـلافهم، رحلة الشتـاء والصيف، فليعبـدوا رب هـذا البيت، الـذي أطعمهم من جـوع وآمنهم من خوف﴾.

سلطة ما لم تكن موجودة بالفعل، كانت الثغرة الأساسية فيه، هي طغيان الجانب الاقتصادي على الجوانب الأخرى، خاصة بعد غياب الشخصيات الموازنة واختلال الصيغة التعاونية للإيلاف، فضلاً عن انحسار تأثيره السياسي ـ المعنوي في الداخل، بالمقارنة مع الشهرة الواسعة التي اكتسبها في الأسواق وعلى خطوط القوافل.

ولعل عضوية العلاقة بين السلطة والنمط الانتاجي في مكة، كان لها تأثير كبير على التكوين السياسي لهذه الأخيرة، مما أدى إلى قيام ظاهرة فريدة في الحجاز وهي الأحلاف، التي عبّرت عن أزمة السلطة في مكة، بمثل ما عبّرت عن التباين الاجتماعي فيها، وذلك في وقت شهد انحسار الاتجاه التعاوني، الذي كان العنصر الأقوى في تحقيق الأمن السياسي والتجاري للحاضرة القرشية

وكانت هذه الظاهرة في الواقع على حساب «الإيلاف» الذي نزلت به حينذاك محنة «الفجار»، تلك الحرب التي شنّها بعض بطون قيس في الحجاز ضد مكة، في اعقاب محاولاتها الاعتدائية على مناطق نفوذ تابعة لعشائر أخرى، حيث وُصفت بأنها تمرد بلغ حدود الكفر على شرعية السيادة التي يمثلها الإيلاف(٣٨). ولم يكن هذا الموقف دفاعاً عن مكة، ولكن عن المصالح الاقتصادية للقبائل المرتبطة بهذه المعادلة. ومع قيام

(٣٨)ابن الأثير، الكامل ج ٧ ص ٢٨٢، السهيلي، الروض ج ١ ص ٢٠٩.

حلف «المطيبين»، باكورة التكتلات السياسية في مكة، ظل «الإيلاف» قائماً كمنظومة اقتصادية وذلك بعد تفريغه من مضمونه التكافلي، تلك السلطة ـ الظل التي كانت وراء الاستقرار المكي خلال عهدي هاشم وعبد المطلب.

والواقع أن ثمة علاقة بين انكفاء المنظومة الإيلافية وظهور الأحلاف، انطلاقاً من التحوّل الاجتماعي الذي شهدته حينذاك مكة، لمصلحة الأقلية الفئوية، دون أن تعني الفئة هنا العشيرة، ولكن كبار التجار الذين اخترقوا الهيكلية الاجتماعية في قريش. أما القوة المحرّكة لحلف المطيبين فقد تمثلت ببني أمية (عبد شمس)، الجناح المنافس لبني هاشم في زعامة «الإيلاف»، وانضمت اليهم كل من أسد وزهرة وتيم والحارث[٣٩]. فقد شعر هؤلاء بقوتهم التجارية الصاعدة وما رافقها من توسيع الدائرة الاستقطابية لمكة، على نحوٍ دفعهم إلى التدخّل المباشر لحماية مصالحهم من المنافسة. على أن هذا الحلف لم يكن موجهاً ضد بني هاشم، حيث تمّ احتواؤهم اقتصادياً بعد تقلص دورهم التجاري، ولكن ضد الخصوم التقليديين لبني عبد مناف، المتمثلين ببني عبد الدار وحلفائهم، الذين كان لبعضهم شأن غير قليل في التجارة المكية. ومن هنا كان النفوذ الفعلي فيه لبني عبد شمس، خلافاً لنفوذ بني هاشم المعنوي، مما سيؤدي إلى إخراج هؤلاء أو خروجهم إثر الانشقاق الذي تعرض له فيما بعد هذا الحلف.

---

(٣٩) المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٣.

وكان من البديهي أن يسفر قيام تحالف المطيبين، بدوافعه الاقتصادية البحتة التي جاءت لمصلحة بطون دون أخرى في قريش، عن اضطراب المعادلة الإيلافية التي كان التوازن الاجتماعي (التكافل) أبرز مسوغاتها على الصعيد الداخلي، مما سيقود هذا التحالف إلى المجابهة الحتمية مع البّطون الأخرى، لا سيما الأقل ثراء في مكة. فقام تكتل منافس عُرف بـ «لعقة الدم» أو «الأحلاف» الذي غلب عليه، انطلاقاً من التعبئة التي أوجدها «المطيبون» وما رافقها من استنهاض البطون المتضررة، وتكتلها لمواجهة الخطر المشترك، وما رافقه من مسّ للشرعية الإيلافية على يد قريش نفسها هذه المرة. وكانت الزعامة الأدبية في الحلف الجديد لبني عبد الدار، الذين ظلّوا يمارسون وظيفة الرئاسة في «دار الندوة» شبه المعطلة، بينما القوة المادية تمثلت ببني مخزوم، فضلاً عن مشاركة بني سهم وجُمح وعَديّ (٤٠)، الذين كانوا من متوسطي الثروة بالمقارنة مع أعضاء التكتل السابق.

وكانت أجواء الصراع الداخلي قد أخذت تنتشر في مكة، بعد أن تجنّبت ذلك طويلاً بفضل تلك المعادلة الفريدة، التي أدى اختلالها إلى شرخ عميق في البنية الاجتماعية لحاضرة الحجاز. فالحلف الأول (المطيبون) تطلع إلى دعم مواقعه السياسية والاقتصادية، بالحؤول دون قيام مراكز مستجدة على

---

(٤٠) اليعقوبي ج ٢ ص ١٧. المسعودي، مروج ج ٢ ص ٣٢. السهيلي، الروض ج ١ ص ١٥٣.

حساب نفوذه، والآخر (الأحلاف) كان حريصاً على حماية مصالحه وإثبات وجوده في مرحلة حاسمة من تاريخ مكة، دون أن تتورّع الفئات المتنافسة عن استخدام القوة كسبيل إلى تحقيق أهدافها الحيوية. وكان ذلك واضحاً في ضراوة الموقف الذي اتخذه «المطيبون» إزاء خصومهم «الأحلاف» والدعوة إلى «إفنائهم»، في ضوء ما أشارت إليه الرواية التاريخية: «لتُفنِ كل قبيلة من أُسند إليها»[41]، ذلك الشعار الذي عبّر عن حدّة المنافسة بين الطرفين.

ولكن الحرب التي أشارت المرويات إلى وشك اندلاعها في مكة، لم تتجاوز حدود التعبئة النفسية، حيث تمّ انقاذ المعادلة المضطربة مرة أخرى وربما أخيرة، ومن ثمّ تحولت المجابهة إلى مهادنة، واستُبدل قرار التصفية بميثاق للتعايش. فقد أدرك كلاهما خطورة الصراع على تجارة مكة، وتجنّب حلاً خارج مألوف التقاليد القرشية.

وكانت التسوية لمصلحة «المطيبين»، الذين حققوا في السلم، الجزء الكبير مما طمحوا إلى تحقيقه في الحرب، بعد أن خرج حلفهم معزز الموقع محافظاً على السلطة الفعلية، المتوارثة في بني عبد مناف، بينما اقتصرت مكاسب «الأحلاف» على وظائف الشرف (الحجابة، اللواء، الندوة)[42]، التي جاءت بمثابة ترضية معنوية لبني عبد الدار. على أن الانجاز البارز الذي حققه

---

(٤١) السهيلي، الروض ج ١ ص ١٥٤.
(٤٢) المكان نفسه.

الحلف الأخير، هو الاعتراف بشراكته للمطيبين في زعامة مكة، على الرغم من تفاوت النفوذ والسلطة بين كلا التحالفين.

وإذا ما توقفنا عند خلفية هذا التمزّق للجبهة القرشية، سنجد أنها متصلة بنمو الثروة وظهور نسبة غير قليلة من كبار الأغنياء تجاراً وصيارفة ومرابين وسماسرة، الذين سيطروا بفضل هذا النفوذ الاقتصادي على مقدّرات المدينة. ولم يُصِب هذا التمزق وحدة المجتمع فقط، و لكنه أصاب أيضاً وحدة العائلة (البطن)، مما جعل حلف «المطيبين» الذي آلت إليه السلطة الفعلية، لا يمثّل فقط اتحاد الفروع النافذة والقوية، ولكنه ضمّ في الوقت نفسه أفراداً شذّوا عن بطونهم، بعد أن شدّتهم المصلحة التجارية إلى هذا الحلف. ولم يكن غريباً حينذاك استقطاب الأخير، لأولئك الذين أمسكوا بزمام الثروة أو معظمهم في مكة، انطلاقاً من هذا التحالف العضوي المتغلّب على شتى الالتزامات، كأبي جهل المخزومي وأبي لهب الهاشمي، أو التعاطف الجزئي، مع الرضوخ للقرار العائلي عند الضرورة، كالعباس بن عبد المطلب (هاشم) وعبد الرحمن ابن عوف (زُهرة)، في وقت كانت كلتا المجموعتين على خلاف «جبهوي» ـ إذا جاز التعبير ـ مع الحلف المذكور.

وهكذا فإن التسوية التي وصل إليها الفريقان لم تكن الحّل المنشود لمشكلة السلطة في مكة، التي ازدادت ابهاماً في ظل هيمنة المطيبين وتعطيل «دار الندوة». فإذا كانت ـ أي التسوية ـ قد أوقفت المجابهة المحتملة، فإنها لم تحقق ما يتجاوز المهادنة

التي أسفرت عن تجميد الموقف السياسي، دون أي انعكاس على جوهر المشكلة التي بلغت حداً من التعقيد في الربع الأخير من القرن السادس، ودون أن تنجو التجارة نفسها وسط هذه التطورات التي لم تكن لمصلحتها في نهاية الأمر، بعد انحسار الحضور الايلافي في مكة ومعه الرابطة التكافلية، التي كانت وراء التفوّق الاقتصادي الذي بلغته الأخيرة في ذلك الحين.

وكان فشل حلف «الاحلاف» في تحقيق توازن نسبي لمصلحة الأكثرية من قريش، ومن ثمّ في اعادة الدور السلطوي لدار الندوة، وما يرتبط به من مسائل اجتماعية واقتصادية، سبباً في ظهور تكتل ثالث (حلف الفضول)[٤٣]، للقيام بهذا الدور التوازني المطلوب، حيث نجح من خلال تكوينه الاجتماعي، في أن يتجاوز طموح «الأحلاف» المتواضع، وأن يطرح نفسه البديل الأفضل لدى مختلف الأطراف في مكة. أما خلفيات هذا الحلف الجديد، فهي متفاوتة، وإن كانت أكثر تركيزاً على مسألة السلطة الضائعة في مكة والدعوة إلى تنشيط «الايلاف» واستعادة قوته المعنوية.

---

(٤٣) ذكر ابن الأثير في رواية عن ابن إسحاق: «كان نفر من جرهم وقطوراء يقال لهم: الفضيل بن الحارث الجرهمي والفضيل بن وداعة القطوري والمفضل ابن فضالة الجرهمي، اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقروا ببطن مكة ظالماً، وقالوا: لا ينبغي إلا ذلك لما عظم الله من حقها. فقال عمرو بن جوف الجرهمي:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ... ألّا يقرّ ببطن مكة ظالم

أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتز فيهم سالم

ثم درس ذلك فلم يبق إلا ذكره في قريش. الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤١.

ولعل الخلفية السياسية كانت شديدة الوضوح، حيث كشف حلف الفضول اضطراب السلطة في مكة واتخاذها طابعاً فئوياً لمصلحة مجموعة «المطيبين»، التي لم يكن لديها من الخبرة الادارية أو السياسية ما يماثلها في التجارة وفي شؤون الكسب الأخرى. ومن هنا بدا أبو سفيان رجل «المطيبين القوي» و«شيخ قريش»(٤٤)، غير قادر على مسك عنان السلطة السياسية، التي احتاجت إلى قوة معنوية متكافئة مع القوة التجارية، ربما توسّلها أحياناً عبر تحالفات فردية من خارج «المطيبين»(٤٥).

وثمة خلفية اجتماعية ـ اقتصادية، لم تكن خافية وراء هذا الحلف، الذي ارتبط مباشرة بحادثة ربما كانت عادية، ولكنها اتخذت أهميتها في غمرة تلك الظروف، حين تلقفها المعارضون لحلف المطيبين، لطرح مسألة السلطة، التي فقدت طابعها «الإيلافي»، وما اتسم به من شمولية على المستويين المحلّي (القرشي) والخارجي (القبلي). وقد ربط «المسعودي» بين هذا الحلف وبين حروب الفجار(٤٦)، التي قامت بين قريش وبين قيس أو فروع منها في أواخر القرن السادس الميلادي، حيث سميت كذلك لوقوعها في الأشهر الحرم(٤٧)، وانتهاكها لمبادىء «الايلاف» الذي اكتسب ـ رغم ضمور الجانب السياسي فيه ـ

---

(٤٤) Lammens, LaMécque à la veille de l'Hégire, P. 166.

(٤٥) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، ص ٩٢.

(٤٦) مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٦٨.

(٤٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٦، ص ٨٧ وما بعدها.

صفة شرعية، مما دفع قريشاً وحليفاتها إلى التصدي بكل قواها[٤٨]، لما رأت فيه خطراً على هذه الشرعية الايلافية، التي اقترنت بها التجارة المكية في ذلك الحين.

ويأتي اعلان هذا الحلف، معبّراً عن الأزمة التي غرقت فيها مكة، وتركت تأثيرها على الوضع الاجتماعي وربما الأمني فيها، خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس[٤٩]. وقد قيل إن رجلاً «من زبيد من اليمن قد باع سلعة له من العاص بن وائل السهمي، فمطله بالثمن حتى يئس، فعلا جبل أبي قبيس، وقريش في مجالسها حول الكعبة، فنادى بشعر يصف ظلامته[٥٠]. . .» ولعل أهمية هذه الحادثة، أنها تشكل سابقة في المجتمع المكي، الذي فقد تماسكه في ذلك الوقت ومعه المناخ التجاري المميز، مما أدى إلى ذلك التلكؤ في انصاف التاجر اليمني من خصمه، الذي لم يكن رجلاً عادياً في قريش، وإنما كان زعيم أحد بطونها (سهم) ومن أركان «الأحلاف» (لعقة الدم). على أن ذلك لم يعدم تحركاً لدى بعض قريش، لا سيما بني هاشم، حين اتخذ الزبير بن عبد المطلب المبادرة إلى إحياء

---

(٤٨) ابن الأثير، الكامل، ج ١، ص ٥٩٣ ـ ٥٩٥.

(٤٩) تشير الرواية إلى ظهور حلف الفضول بعيد حرب الفجار مباشرة، أي بعد نحو عشرين عاماً على عام الفيل الذي ولد فيه النبي (٥٧٠م) حيث يصادف ذلك العام ٥٩١م أو نحوها ـ المسعودي، مروج، ج ٢، ص٢٦٨.

(٥٠) يا للرجال لمظلوم بضاعته ببطن مكة نادى الحي والنفر
أن الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

المسعودي، مروج، ج ٢، ص ٢٧٠.

«دار الندوة»، والدعوة إلى الاجتماع فيها لبحث ظلامة اليمني، التي كانت في الواقع مدخلاً إلى مناقشة أزمة السلطة وإدانة - ربما غير مباشرة - لحلف المطيبين، وذلك في إطار «المؤسسة» الشرعية، الممثلة لكافة البطون القرشية في مكة.

وقد يصحّ القول إن هذه الدعوة، تكتسب ملامح الحركة الاصلاحية، بعد اختلال التوازن الذي جسدّته «دار الندوة» على المستوى المحلي والايلاف على المستوى الأوسع. ولكن هذه الحركة، على الرغم من وضوح التأثير التجاري فيها، كانت قد تجاوزت المرحلة إلى ما هو أكثر عمقاً من مشكلة التاجر اليمني وهموم الفئة المستضعفة في مكة، حيث بدت الأخيرة على منعطف تاريخي وشيك، وبدت ملامح التغيير أكثر وضوحاً بعد قيام حلف الفضول، الذي كان النبي ﷺ من شهوده، وقال فيه ما نسب له:

«لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان[٥١]، ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت»[٥٢].

---

(٥١) ثمة التباس حول المكان الذي انطلق منه هذا الحلف، إذا كان دار الندوة أو دار عبد الله بن جدعان، أو كليهما تباعاً، حيث وردت الأولى لدى المسعودي، مروج ج ٢، ص ٢٧٠، بينما ورد الثاني لدى ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤١.

(٥٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٤١.



تكوُّن الدولَة الإسلامية في المدينة

البدَايَة والنَموذج

تطمح هذه الدراسة إلى مناقشة العناصر التكوينية الأولى لدولة النبي ﷺ دون أن تكون هذه العناصر ـ أو بعضها على الأقل ـ مقطوعة الصلة تماماً بعصر التجارة المكية وشبكة العلاقات الواسعة، التي امتدت شرايينها في العمق، وإلى الأطراف من المنطقة.

ولعلها ـ أي الدولة ـ اكتسبت خصوصية في تحقيق، ليس فقط نواة المؤسسة، بل نواة الإنسان الحضاري، متمثلاً فيما عرف بـ «الجماعة» أول، إنجاز لافت للهجرة التي كرّست الافتراق عن «الأقلية» التجارية، المنتظِمة في حلف «المطيبين»[١] أو البقية منه، بعد اقتصاره على اثنين فقط (أمية ونوفل) من أصل عشرة بطون من قريش، وذلك في أعقاب الحركة الخطيرة التي قادها حلف «الفضول» قبل نحو ربع قرن من الإسلام[٢].

---

(١) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٧، المسعودي، مروج جـ ٢، ص ٣٢.

(٢) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ١٧ ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٣ ص ٢٥٣ ـ ٢٣٦، السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية ج ١ ص ١٥٤.

كانت بداية العهد أو لنقل بداية التاريخ، حيث المرويات والكتابات الأولى تمحورت حول شخصية النبي ﷺ ـ المؤسس، مسهبةً في التفاصيل من حياته وأعماله، ومستفيضة من ثمّ في أخبار المدينتين المقدستين: مكة والمدينة، حيث عاش صاحب دعوة في الأولى ومؤسس دولة في الثانية، دون أن تعبأ، إلا قليلاً، بالصفحات السابقة التي ظلت فقيرة المادة غائمة الصورة(٣).

ولا بد من الاعتراف أن هذا الفراغ أو التخلخل التاريخي، جعل من الدراسات المحيطة بهذه الفترة منقوصة وغير متّسمة بالطابع الشمولي للأوضاع السياسية والاجتماعية، على نحو متكافىء مع الفترة اللاحقة. فثمة نقاط مبهمة، سأحاول مناقشتها بروح موضوعية، دون أن أزعم أنها دراسة كاملة، وإن كنتُ زاعماً أنها ممنهجة وعلمية. وهنا أجد نفسي حريصاً على اتخاذ هذا المنحى في كتابة التاريخ الإسلامي، والتعاطي بصورة واقعية مع الحدث، دون تجريده من ذاته وروحه أو فصله عن المناخ الزمني والمكاني، على طريقة بعض المدارس الفكرية التي اثبتت ـ وإن بصورة متفاوتة ـ فشلها في استيعاب المتغيرات الجذرية، التي كانت من خلال فرادتها غير قابلة للتعميم الحرفي أو المقارنة الجافة، مع أي من المجتمعات الأخرى، ذات النظم والمفاهيم والمعتقدات وحتى القيم المختلفة في العصور القديمة والوسطى.

---

(٣) الفاسي، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج ١ ص ١٥١.

لم يكن الحجاز منطلق الدعوة والدولة خاضعاً، كما هو مألوف، في تكوينه التاريخي لنمط اجتماعي أو انتاجي محدّد، وإنما لمجموعة من المعطيات الجغرافية والاقتصادية، تدخلت بصورة غير متوازنة في إبراز شخصيته الحضارية الخاصة. فهنالك الطابع الصحراوي ومعه نمط الحياة البدوية الأكثر شيوعاً، ولكن دون أن يكون مصحوباً بالنفوذ الذي استأثرت به مراكز الاستقرار في مكة ويثرب والطائف وبعض القرى والمزارع الأخرى[٤].

ولعل المقولة «الخلدونية» ـ التي ترى «أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش»[٥] ـ تنطبق على هذه المراكز الرئيسية الثلاثة، حيث اتخذ كلّ منها طابعه شبه الخاص، على الرغم من المعطيات الجزئية للتكامل الاقتصادي، وانطوى على علاقة تنافسية مع الآخر. وقد تطور هذا التمايز إلى الحدّ الذي ظهرت معه تيارات ثلاثة، تضاربت بصورة ما عشية ظهور الدعوة الإسلامية:

ـ الأول قرشي، كان الأكثر استقطاباً من خلال شبكة العلاقات التجارية الواسعة المنتظِمة في نطاق «الإيلاف»[٦].

(٤) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في اشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري. ص ٩٩.

(٥) ابن خلدون، المقدمة ص ٢١٠.

(٦) البلاذري، أنساب ج ١ ص ٢١٠ (تحقيق احسان عباس). الطبري ج ٢، ص ١٨٠.

ـ الثاني ثقفي، ربما وجد في الطائف شروطاً أفضل للاستقطاب متربّصاً بالسوانح لهذا الطموح. (موقف ثقيف من الحملة الحبشية على الحجاز، على سبيل المثال)(٧).

ـ الثالث هو تحالف الأمر الواقع من القبائل العربية واليهودية في يثرب. وقد شكّل ذلك ـ خلافاً لمكة والطائف، حيث القوة الأساسية من العرب ـ أهمية على الصعد السياسية، والدينية والاقتصادية.

وكان في الواقع تنافس خفي أو معلن بين هذه التيارات الثلاثة، على النفوذ وقيادة الحركة التجارية في الحجاز. غير أنه كان أكثر وضوحاً في يثرب، في الوقت الذي اختفى فيه هذا الشعور التنافسي من الطائف، مؤدّياً إلى جبهة موحدة بين قريش وثقيف، جسّدت لاحقاً مصالح الطرفين في مواجهة التيار الإسلامي الصاعد الذي أخذ يتمحور في يثرب، ومن ثمّ أصبح هذا التحالف أحد مرتكزات السياسة الداخلية لدولة الأمويين خلال عهديها السفياني والمرواني(٨).

وليس ثمة شك أن التيار القرشي كان الأقوى نفوذاً والأوسع

---

(٧) راجع ما أورده ابن إسحاق في حديث الفيل «حتى إذا أشرف (ابرهة) على وادي وج في الطائف، خرجت إليه ثقيف، فقالوا: أيها الملك إنما نحن عبيدك وليست ربتنا، هذه بالتي تريد ـ يقصدون اللات صنمهم ـ وليست بالتي تحجّ إليها العرب، وإنما ذلك بيت قريش الذي تجيء إليه العرب». كتاب السير والمغازي ص ٦٢.

(٨) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية ص ١٠٠.

دائرة حتى أواخر القرن السادس الميلادي، حيث اكتسبت مكة اثنين من أبرز عناصر الاستقطاب في الحجاز:

الأول: العنصر الديني، باعتبارها مقراً للكعبة وعبادات العرب، وما يمثّل ذلك من علاقة تعيش في وجدان القبائل، الدائرة في فلك النفوذ المكّي.

الثاني: العنصر الاقتصادي، جسّده «الإيلاف»، تلك السلطة غير المنظورة التي لم تقتصر على الحجاز فقط، بل امتدّت حيث سارت القوافل، داخل «المثلث» الكبير الذي توسطته مكة وأمسكت بأطرافه، ما بين الخليج واليمن والشام[٩].

ولادة تاريخ..

لقد سارت مكة شوطاً بعيداً في تحقيق ذاتها تلك، ربما بلغ معه تكوينها الاجتماعي ـ الاقتصادي، حدّاً من النضج في عهد عبد المطلب، أحد أقوى رجالات عبد مناف بعد أبيه هاشم، المؤسس الحقيقي للمنظومة الإيلافية. ففي تلك الأثناء، وعلى الرغم من الحصانة الجغرافية التي عزلت مكة عن رياح التدخّل الأجنبي، السياسي والديني، الذي استهدف اليمن، وأدّى إلى سقوط الحكم العربي في هذه المنطقة الحضارية الرائدة، فإنها أي مكة لم تكن معزولة عن المؤثرات التي رافقت الحملة الحبشية أو نتجت عنها، حيث استهدفت خطوتها التالية، الحاضرة الحجازية، بغية الاتصال بمراكز النفوذ البيزنطي في

(٩) اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ١٩٩، المغربي كتاب الجغرافيا ص ١١٧.

الشام(١٠). ولقد تمّ ذلك في الوقت الذي أخذ «الحاجز» على تخوم الأخيرة في التداعي، تحت ضغط «الزحف» القبلي إلى هذه المنطقة، مما سيقود البيزنطيين لاحقاً إلى محاولة الاستقطاب المباشر لمكة وتجارتها، من خلال اصطناع أحد زعمائها البارزين وهو عثمان بن الحويرث الأسدي، حسب الرواية المنسوبة للزبير بن بكار(١١). أما الحملة الحبشية، فقد تراجعت فاشلة، ولكن دون انقاذ النظام المكّي الوثني، الذي آلت السيطرة الفعلية فيه بعد غياب عبد المطلب، لجماعة «المطيبين»(١٢)، الذين شهدوا بدورهم «اختراقاً»، ما كان يحدث لولا المؤثرات التي حملتها تلك المرحلة الحاسمة. ذلك أن السلطة في مكة، فقدت تماماً

---

(١٠) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٧ ص ٢٨٢، دار العلم للملايين - بيروت ١٩٦٨. راجع أيضاً

Ch. DIEHL., Byzance, grandeur et décadence. p 95.

(١١) تشير الرواية إلى أن عثمان كان يطمح «أن يملك قريشاً، وكان من أظرف قريش وأعقلها حتى قدم على قيصر وقد رأى موضع حاجتهم إليه ومتجرهم من بلاده، فذكر له مكة ورغّبه فيها، وقال: تكون زيادة في ملكك كما ملك كسرى صنعاء. فملّكه عليهم وكتب له إليهم. فلما قدم عليهم قال: يا قوم أن قيصر من قد علمتم ببلاده وما تصيبون من التجارة في كنفه، وقد ملّكني عليكم، وإنما أنا ابن عمكم واحدكم، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة من السمن والأوهاب، فأجمع ذلك ثم ابعث به إليه، وأنا اخاف ان أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام، فلا تتجروا به ويقطع مرفقكم»، الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ص ١٠٨ - ١٠٩، تحقيق لجنة من كبار العلماء. مكتبة النهضة الحديثة - مكة. راجع أيضاً

H. Lammens, L'arabie occidentale avant l'Hégire. P 38 - 39.

(١٢) D. O'Leary, Arabia, Before Muhammad. P 181.

ـ أو كادت ـ تماسكها القبلي التقليدي، الذي كانت تجسّده عرفياً «دار الندوة» وأصبحت تمثّل عملياً رأس المال، ضمن تحالف فردي يقرّره الشراء وليس «التكافل» القديم، حيث بدا ذلك شديد الوضوح لدى أقطاب السلطة المنتمين إلى عدة أبطن: أبو سفيان (عبد شمس)، أبو جهل (مخزوم)، أبو لهب (هاشم) الخ . . .

وفي غمرة هذه التطورات، ومع هبوب رياح التغيير، المسبوقة بمؤثرات أخرى حملها التجار أنفسهم، دون معرفة ما تخبئه الأقدار لهم، أو ما تحمله الأيام لـ «امبراطوريتهم» التجارية من تهديد، ولنظامهم الوثني من مأزق خطير. وفي الوقت الذي كانت فيه «الأقلية» القرشية تعيش أبهج أيامها، بعد خروج مصالحها سالمة من محنتي الغزو الحبشي وحروب«الفجار»(١٣)، كانت ثمة قوة من الداخل، لم يعرها كبار التجار أهمية ما، تعدّ لإسقاط هذا النظام المتخلّف، متزامناً ذلك مع ولادة محمد في الوقت ذاته الذي يسميه الاخباريون «عام الفيل»(١٤)، واضعةً مكة والحجاز والمنطقة بكاملها، أمام منعطف جذري في التاريخ.

والواقع أن مكة لم تكن بمطلقها مأخوذة بالهمّ التجاري،

---

(١٣)الحرب التي شنتها بعض الفروع القيسية في الحجاز ضد مكة، واعتُبرت من مظاهر التمرد المقرون بالكفر على شرعية السيادة القرشية التي مثلها الإيلاف. السهيلي، الروض ج ١ ص ٢٠٩.

(١٤)ابن إسحاق ص ١١٥.

الذي غرق فيه «المطيّبون»، بل انطوت، وسط المؤثرات الحضارية والحصار العقائدي في الشمال والجنوب، على فكر مثقف ـ إذا جاز التعبير ـ تجاوزت همومه آفاق التجارة والكسب، إلى النظر في الشؤون الحياتية الأخرى، سواء الجانب الاجتماعي أم الديني. وقد أورد ابن اسحاق بعض الشخصيات المتنورة في «سيرته»، من أمثال: زيد بن عمرو ابن نفيل، وورقة بن نوفل بن أسد، وعثمان بن الحارث (الحويرث)، وعبد اللّه بن جحش بن رئاب الخ.. ولعل هذا المناخ الفكري الجديد، قد تجاوز مكة إلى مناطق أخرى في الحجاز، شهدت حالات مماثلة، لا سيما الواقعة على خطوط القوافل التجارية، أو على مقربة منها. وقد تكون يثرب من خلال تكوينها الجغرافي والسكاني، أكثر عرضة للمؤثرات المباشرة، واستجابة للتيار التوحيدي الذي أخذ يستولي على النخبة الحجازية في ذلك الحين.

ولكن قُدّر لمكة أن تشهد من كان أكثر اختلاءً بنفسه وتأثّراً بتلك الأزمة الفكرية، ومن ثمّ استرسالاً في البحث عن جذور التوحيد العميقة فيها (الحنيفية)، أو متحنّثاً حسب التقاليد القرشية. وكان التحنث أو التحنف ـ على اختلاف الاشتقاق في اللفظ أو المعنى، أحد الرموز المعبّرة عن تلك المرحلة في دعوتها إلى التوحيد والخروج من الوثنية. بيد أن ظهور الإسلام في وقت لم تعد السلطة الفعلية فيه، للفريق الذي ينتمي إليه النبي ﷺ (هاشم)، أدى إلى إثارة الهلع لدى تحالف «الأقلية» النافذة التي

رأت في هذه الدعوة، مدخلاً لعودة عشيرة النبيﷺ إلى الواجهة في مكة، دون أن يكون بالضرورة هذا الشعور القبلي كما الوثني، معبّراً عن القناعات الفعلية لزعماء هذا التحالف، الذين سارعوا إلى ترميم الوضع ومحاولة انقاذ النظام، المرتبط عضوياً بمصالحهم المهدّدة.

ومن هنا كانت الخطوة الأصعب في مسار الدعوة الاسلامية، عندما خاض النبي ﷺالمجابهة الدؤوبة في مكة، معتبراً هذه الأخيرة، الباب الرئيسي للحجاز والمنطقة، فضلاً عن اعتقاده الراسخ بعدم جدوى التحرك خارج نطاق المدن، الأكثر قدرة على استيعاب التغيير والتحوّلات الحضارية. ولذلك يعرض النبي ﷺ عن البادية ويتوجه نحو مراكز الاستقرار، لما تملكه من قوة مادية وتأثير معنوي (التوجه إلى ثقيف وحنيفه[(١٥)]، قبل التوجه إلى يثرب، على سبيل المثال).

لماذا يثرب؟

إن البحث عن مقر ملائم للدعوة كيثرب، لم يكن مصادفة أو مجرد لقاء عفوي مع «الخزرج»، مهّد للهجرة بعيد سنوات ثلاث، ولكنه كان محصّلاً لفترة طويلة من التأمل، انتهت إلى

(١٥) كانت حنيفة تسيطر على مرافق اليمامة والطرق المتشعبة إلى الحجاز والعراق، فضلاً عن الخليج، بحيث رأى فيها البعض دولة على غرار «دول الأطراف». راجع الطبري جـ٢ ص ٢٣٢، رضوان السيد، من الشعوب والقبائل إلى الأمة، مجلة الوحدة ص ٢٥ عدد ٤ بيروت ١٩٨٠. سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٦٤.

ذلك القرار الحاسم الذي غير مجرى التاريخ في المنطقة والعالم.

والواقع أن ثمة معطيات، ربما وضعت يثرب على مستوى المواجهة المتكافئة مع مكة، إن لم يكن التفوّق عليها في مجالات عدة افتقرت إليها الأخيرة. فإذا كانت الحاضرة الحجازية قد استمدت أهميتها من «الإيلاف» والحصانة التي تمتع بها، وما ينطوي عليه ذلك من نفوذ، فإن يثرب كانت لها معطياتها الهامة أيضاً، مما يؤهلها لأن تكون نواة الدولة المرتقبة، بدءاً بالموقع الجغرافي على طريق تجارة الشام - عصب الاقتصاد القرشي - والمتاخمة لمنطقة حضارية عريقة في الشمال وما يرافق ذلك من احتكاك بمؤثراتها الدينية والثقافية(١٦)، فضلاً عن المعطيات الاقتصادية، كخصوبة الأرض البركانية (١٧) ووفرة الماء(١٨) وبعض المواد الأولية (الحديد على مقربة منها)(١٩)، دون الانتهاء أخيراً عند التكوين السكاني المضطرب، حيث الصراع الداخلي يمزق وحدة المدينة والقبائل معاً، وتمحوره عدة قضايا هامة،

---

(١٦) E. Rabbath, mahomet, prophété arabe et fondateur d'Etat p 165.

(١٧) ابن حوقل، صورة الأرض ص ٣٩ طبعة بيروت ١٩٦٣، الكتّاني، التراتيب الإدارية ج ١ ص ٥٠، ٥٣. اسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٧.

(١٨) اليعقوبي، بلدان ص ٣١٣. ابن حوقل، الأرض ٣٧.

(١٩) المنطقة التي أقام فيها بنوسليم، من القبائل القيسية الكبرى، الذين امدّوا اليهود بهذه المادة. راجع المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٠٨. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص ٢٧٤، ابن الأثير، أسد الغابة. ج ١ ص ٤٢.

سـواء كـانـت سياسيـة، تمثلت بفـراغ السلطة وغيـاب الجبهـة الـواحدة، أو اقتصـاديـة تمخّضت عن اختـلال مـوازين الثـروة لمصلحـة فريق (اليهـود) دون آخـر (العـرب)، أو اجتمـاعيـة، نشأت مع تذمر هؤلاء من الاستغـلال اليهودي المتعـدّد الوجـوه والأشكال. أما القضية الدينية فلم تكن على الأرجح مطروحـة بصورة جدية، ولكنها قد تضاف إلى التناقضات السابقة، وتمثّل نتيجة حتمية لها، دون أن تعدم تأثيراً مـا على الفكـر العربي في يثرب، الـذي استـطاع عـلى الـرغم من وثنيتـه، التـأقلم مـع العقيدة اليهودية واستيعاب بعض تعـاليمها، ممـا جعله متقدمـاً على الفكر القرشي في هذا المجال.

وثمة معطى هام وأخير، هو أن العلاقـة بين يثـرب ومكة لم تكن خالية من الجفاء فضلاً عن الحذر، مما كان له تـأثيره عـلى ضمـور دور الأولى في «الإيـلاف»، ربمـا تحت تـأثـير العـوامـل السابقة مجتمعة، أو العامل الجغرافي الـذي جعل يثـرب البعيدة عن مكـة أقل حجـازية[٢٠] وبـالتالي غير فاعلة تمـاماً في شبكـة المصـالح القـرشية. عـلى أن الـدافـع المبـاشر لحمـاسـة الأوس والخزرج، في العزوف عن مكة واتخاذ القرار الجريء بتأييد النبي ﷺ وفتح الأبواب أمام دعوته، كان ينطوي أيضاً عـلى خيبة أمـل، بـل صـدمـة من المـوقف القـرشي إزاء الحـرب الأهليـة، التي استنـزفت قـوة الأوس والخـزرج في يـوم «بعـاث»[٢١]، حيث

---

(٢٠) يعتبرها بعض الجغـرافيين نجـدية أكـثر منها حجـازية ، ابن خـرداذبة، المسالك والممالك ص ١٢٨، القلقشندي، نهاية الإرب ص ١٧.

(٢١) الطبري ج ٢ ص ٢٣٣.

تجاهلت مكة هذه الحرب، كما تجاهلت مناشدة الطرفين المتصارعين، من أجل استنصارهما على تكتّل بني قريظة والنضير، وذلك قبيل وقت قصير من الهجرة [٢٢].

كانت هذه أهم بواعث الاختيار لدى النبي ﷺ في اتخاذ يثرب المنطلق المناسب للدولة الاسلامية الأولى، ممهداً لذلك بمعاهدتي «العقبة»، وتاركاً وراءه مؤامرة في دار الندوة تستهدف حياته. وكان اللجوء من جانب قريش إلى هذه الأخيرة بعد تعطيلها حيناً في ظل هيمنة «المطيبين»، مؤشراً لإضفاء الشرعية على القرار، الذي بقي غير فاعل تماماً، كون «المتندين» مثّلوا رأس المال في قريش دون «الجماعة» فيها، حيث نجح النبي ﷺ في «اختراقها» بفضل المسلمين الروّاد الذين انتموا إلى معظم البطون القرشية[٢٣]. بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الدور «الشرعي»، لم يعد في متناول زعامتها التي افتقدت قدرتها التمثيلية، بعد العزلة التي أحيطت بها سابقاً، أي بعد قيام «حلف الفضول» الذي حاز السبق في إحياء «دار الندوة» شبه المعطلة[٢٤]،في وقت أصبحت أدواتها الفاعلة في يثرب. ولعل صعوبة اتخاذ هذا الموقف التمثيلي، حال سابقاً خلال الثلاثة عشر عاماً من نضال الدعوة في مكة، دون تحريك الرأي العام القرشي بصورة جديّة، ربما لأن حدّاً معيناً من الحماية توفر

---

(٢٢) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٣٧.
(٢٣) الطبري ج ٢ ص ٢٤٣.
(٢٤) المسعودي، مروج ج ٢ ص ٢٧٠.

لصاحب الدعوة، ممن كانوا يمتّون له بصلة ما في مراكز النفوذ، كالعباس عمه الذي يبدو أنه كان الحليف القوي من داخل النظام، ذلك الدور الذي تبلور أثناء «الفتح» الإسلامي لمكة[٢٥].

«الجماعة» الإسلامية ـ جمهور الدولة الأولى

تجاوز النبي ﷺ في يثرب أو المدينة، الدور التبشيري إلى دور تنظيم الدولة بعد أن حالت العثرات المكية دون تحقيقه. وكانت «الصحيفة» نواتها التشريعية ومنطلق تجربتها المبتكرة في الفكر السياسي، لا سيما المزاوجة العضوية في السلطة[٢٦] بين الدعوة والدولة وفي استيعاب العصبيات القبلية والاقليمية والقومية، وذلك في اطار ما سُمي بـ «الجماعة الإسلامية»، حيث كانت الدعوة إلى التحرر من رواسب الماضي، وبالتحديد العصبية، أول بنود «الصحيفة» التي وجدت في المسلمين «أمة واحدة من دون الناس»[٢٧].

وعلى الرغم من وضوح هذه الدعوة إلى تجذير العلاقات

---

(٢٥) قيل أن العباس «كتب كتاباً ودفعه إلى رجل من بين غفار وأمره أن يسرع إلى المدينة فيسلم الرسالة إلى الرسول ﷺ مشعراً أياه بتحرك قريش عشية غزوة أحد».
الواقدي، كتاب المغازي، ج ١ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ راجع أيضاً: اليعقوبي؛ تاريخ ج ٢ ص ٤١، ٢ ـ.

(٢٦) إبراهيم بيضون، ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري ص ٨٦ ـ ٨٧.

(٢٧) ابن هشام، السيرة النبوية ج ٢ ص ٥٠١.

الاجتماعية في نطاق العقيدة، فإنها اتسمت بشيء من الخصوصية الحجازية، وذلك في مجتمع كان الانتماء القبلي، يمثل ـ ربما من حيث الشكل ـ أحد أركانه البارزة. فالسياسة القبلية احتلت حيزاً من تشريعات الدولة، لأن كثيراً من المعاملات والاجراءات، كالفدية وتبادل الأسرى وحتى الدخول في الإسلام، كان يتم أحياناً على أساس قبلي. على أن التحوّل اللافت في هذا السبيل، تجلى في استخدام «الطوائف» محل «البطون» وذلك دون الأفراد الذين انصهروا مبدئياً في «الجماعة» كالقول: «وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين»(٢٨). وكان من الواضح أن هذا الموقف كانت له أسبابه الحجازية، وبالتالي كان مجرد تدبير ظرفي، بعد أن تجنّب النبي ﷺ آنذاك حسم المسألة العصبية، مكتفياً باحتوائها وتهذيب مفاهيمها إلى حد كبير(٢٩).

لقد استطاعت «الصحيفة» معالجة المشكلة العربية، بل حسمها في المدينة وامتصاص الصراع التقليدي بين الأوس والخزرج، حيث انتقلا من التنافر والتقاتل إلى إطار جبهوي (الأنصار)، بما لذلك من تأثير على أوضاعهم الاجتماعية

---

(٢٨) ابن هشام ج ٢ ص ٥٠٢.

(٢٩) هناك من يرى أن التكتل العشائري غلب التكتل القبلي حيث اعتبر النبي ﷺ المهاجرين من قريش عشيرة خاصة والأنصار عدة عشائر وليس قبيلتين مستقلتين. صالح احمد العلي، تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة. مجلة المجمع العلمي العراقي عدد ٧١ ص ٥٧.

الجديدة. ولكن ثمة مشكلة كان لا بدّ أن تواجه الدولة، وهي تضارب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار[٣٠]، مع واقع التقسيم «الطوائفي» الذي ورد في «الصحيفة»، ومع المصالح غير المنسجمة تماماً لدى الطرفين، حيث تصرف المهاجرون، أو بعضهم، تحت تأثير الاسبقية الاسلامية، فضلاً عن التفوق القرشي الاقتصادي والاجتماعي في الحجاز. وكان من الممكن لهذه الحساسية الاقليمية أن تتفاقم لولا تدخل النبي ﷺ واستيعابه ـ من خلال دوره المركزي ـ تناقضات الجناحين الأساسيين في المدينة، مؤدياً ذلك إلى قيام الجبهة الإسلامية التي كانت رغم الحساسيات المبطنة والظاهرة، الضمانة القوية لنجاح الدولة، والسبيل إلى احتواء عصبيات المجتمع الجديد بصورة متوازنة وواقعية.

وما لبثت دولة المدينة، بعد اكتساب اطارها الشرعي الداخلي، أن توجّهت من الموقع نفسه إلى القبائل العربية في الخارج. وسيؤدي ذلك بداهة إلى فتح الصراع السياسي مع مكة، الذي تبلورمنذ العام الثاني للهجرة. ولعل المسألة أخذت بعداً آخر في صراع أكثر شمولاً، تناول البداوة الحجازية عامة، حيث نافست المدينة مكة في الاستقطاب الحضري، منافسة «الدولة» لـ «الملأ»، بقدر ما تميزت به الأولى عن الثاني في المضمون السياسي والاجتماعي[٣١]. فبينما تحولت الدولة إلى

---

(٣٠) ابن حزم، جوامع السيرة ص ٩٦.

(٣١) إبراهيم، بيضون الحجاز والدولة الإسلامية ص ١٠٨.

دعـوة للاستقـرار المرتبط بالعقيدة، ظـلّ «الملأ» متسّـماً بالـطابـع البـدوي، سواء كـان على مستـوى الأقلية الحـاكمة التي مثّلهـا شيوخ «قريش»، أو في العلاقة الاقتصادية والـدينية مـع البدو، حيث شكـــل هؤلاء أحـد أهم عنـــاصر الاستقـطاب في مكـــة وتجارتها الداخلية والخـارجية. ومن هـذا المنظور تصبـح الهجرة إلى المدينة، هجرةً إلى التحضّر المقرون بالجماعة، ليجسّد هـذا الواقع لاحقاً القولُ المنسـوب إلى الخليفة عمـر بن الخـطاب، في معـرض الرد عـلى قوم من البـدو جـاؤوه للعـطاء: «لا أرزقكم حتى أرزق أهل الحاضـرة، فإن يـد اللّه مع الجمـاعة»(٣٢). وفي المقابل، تظل مكة مرتهنة لمصـالحها البـدوية في الحجـاز، حيث بدت وكأنها تعاكس الحركة التاريخية التي تمحورت في المدينة.

على أن الدولة رغـم اصطدامها بالقبائل وتهديدهـا في مصادر ارتزاقها، فضلاً عن مراقبة تحركاتها واتصالاتها بصورة مباشرة، لم تضـع حـلاً جـذريـاً لهـذه المشكـــلة التي ظلت بعـد غيـاب النبي ﷺ، أحد عوامـل الانفجـار الأكـــثر خـطورة في الـــدولـة الصاعدة. ولذلك لم تكـد تحسم المشاكـل الداخليـة في المدينة، حتى كـانت قـد تـوصّلت إلى حسم سيـاسي أكـــثر منـه ديني، للموقف القبلي في الحجـاز، الذي أخـذ يميل لمصلحتهـا بصورة عامة.

---

(٣٢) صالح أحمد العلي، العـطاء في الإسلام .مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٢٠ ص ٤١.

المنافقون ـ «القوة الثالثة»؟ . .

حافظت الجبهة الإسلامية عل تماسكها في المدينة، وكادت ان تتجاوز المشكلة الاقليمية، لولا حركة «المنافقين» تلك القوة الثالثة ـ إذا جاز التعبير ـ والتي تزعّمها عبد اللّه بن أبيّ بن سلول الخزرجي. وقد مثّل هذا الرجل البارز حينذاك، الاتجاه الاقليمي في المد ينة، المتعارض من حيث المبدأ، مع قيام سلطة مركزية تسودها الهيمنة القرشية، حسب نظرته اليها. وكانت المرونة التي تمتع بها، قد جنبته التّورط في الحرب الأهلية التي استنفدت زعامة الأوس والخزرج، وأهّلته لأن يكون في موقع الصدارة والقبول لدى الطرفين[٣٣]. ومن هذا المنظور، فقد شكلت هذه الحركة نواة المعارضة السياسية في الدولة الجديدة، محاولةً استقطاب المتضررين من متغيراتها، لا سيما اليهود، حيث تطلع زعيمها إلى تحقيق موقع آخر متوازن، بين القوى المتعارضة في المدينة، على غرار الدور الذي شغله في حرب «بعاث»[٣٤]. فهو لم يتردد في ركوب الموجة الإسلامية، في وقت استبطن تحفظاً على «المهاجرين»، حيث رأى في «هجرتهم»، احتلالاً مقنّعا للمدينة اقترن عنده بالمذلة، واتخذه سبيلاً للتحريض عليهم: «ليخرجن منها الأعزّ الأذل»[٣٥] كما

(٣٣) ابن هشام ج ٢ ص ٥٨٥.

(٣٤) وقعت هذه الحرب سنة ٦١٧م، أي قبل نحو خمس سنوات من الهجرة. السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج ١ ص ٢١٨.

(٣٥) ابن هشام ج ٢ ص ٥٢٦.

نُسب إليه. ذلك أنه كان في المدينة «سيد أهلها» حسب رواية ابن هشام، الذي أورد أيضاً: «أن قومه كانوا قد نظموا له الخرز ثم ملّكوه عليهم. فجاءهم رسول الله ﷺ، وهم على ذلك. فلما انصرف عنه قومه إلى الإسلام، رأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً»[٣٦].

ولكن حركة ابن أبيّ، اصطدمت بأول فشل لها، مع بروز منافس قوي في القبيلة نفسها، وهو سعد بن عُبادة الذي كان من روّاد «الأنصار» في الإسلام، ولم يلبث أن تصدّر الخزرج حتى قبل ظهور «نفاق» السلولي، وذلك عندما استنابه النبي ﷺ للقيام بأمر المدينة، أثناء خروجه في غزوة «الابواء»[٣٧] مكرّساً زعامة سعد الخزرجي، التي فرضها موقعه الإسلامي قبل أي اعتبار آخر.

وهكذا فإن أول معارضة داخلية، كانت على خطورتها غير مؤهلة لمواجهة التيار الإسلامي، الذي استمد قوته من شخصية النبي ﷺ والمبادرة السريعة في التصدي للمواقف الصعبة، بما في ذلك الحركة النفاقية التي انتهت إلى الإخفاق، على الرغم من تحالفها مع بني القينقاع الذين احتكروا الصناعات الذهبية واتخذوا سوقاً خاصة حملت أسمهم في المدينة[٣٨]، ومن ثم كانوا أول الخارجين من يهود الأخيرة في العام الهجري الثالث. ولعل

---

(٣٦) ابن هشام ج ٢ ص ٤٨٥.

(٣٧) ابن حزم، جوامع السيرة ص ١٠٠.

(٣٨) السمهودي، وفاء الوفا ج ١ ص ٢٧٨.

ما يثير الانتباه أن «القوة الثالثة» التي ظلّت على هامش الأخطار الحقيقية، المهددة للجماعة الإسلامية في المدينة، لم تجاهر في معارضة «الصحيفة» أو انتقادها علناً، مما يرجح طغيان الباعث الاقليمي لديها، على أية خلفية دينية، مسوّغة ربما هذا الموقف في التصدّي لتعاظم النفوذ القرشي (المهاجرون) في العاصمة الإسلامية. وقد وجدت أفضل السوانح للتعبير عن ذلك في موقعة أحد، حيث كان ابن أبيّ من دعاة البقاء في المدينة، وهو رأي النبي ﷺ أيضاً الذي تخلّى عنه استجابة للأكثرية، مما دفع الزعيم الخزرجي إلى الانسحاب مع جماعته محتجاً بما نسب إليه في «طبقات» ابن سعد: «عصاني وأطاع الولدان»[٣٩].

اليهود ـ الرهان الخاسر

لعل هذه المشكلة هي الأكثر تعقيداً في تكوين الدولة الإسلامية الأولى، حيث كان الموقف اليهودي مبهماً من الهجرة وغامضاً إزاء «المؤاخاة»، قبل أن يكشف عن ذاته الحاقدة التي ظهرت في التآمر المبطن والمعلن على الدولة الصاعدة. وقد يكون المدخل المناسب إلى دراسة هذا الموقف عبر «الصحيفة» نفسها، دون اختلاف ما في الملامح، باختلاف الزمان أو المكان. فما ورد فيها عن اليهود ـ «وإنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم»[٤٠] ـ إنما يصب في الإطار العالمي للدعوة على نحوٍ تجاوز القرشيين،

(٣٩) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٢٧.
(٤٠) ابن هشام ج ٢ ص ٥٠٢.

وعـرب يثرب، ذلـك الاتجاه عـلى تعثّر خـطوته الأولى، كـانت المدينة مختبر مصداقيته ومنطلق أهدافه البعيدة.

هذا عن موقف الـدولة من اليهـود، ولكن ماذا عن مـوقف هؤلاء من الدولة؟

أمـا الجواب فـلا بد أن يعيـدنـا إلى مـا قبـل الهجـرة ومعنـا التساؤل التالي: هل كانت ثمة موافقة يهوديـة ضمنية عـلى هذا الأمر؟ وإذا كان الواقع غير ذلك فهـل كانت للخـزرج وبعض الأوس، القـدرة على الانفـراد بذلـك القـرار من دون حسـاب للقوة الأكثر عدداً ونفوذاً اقتصادياً في المدينة؟

وفي معرض البحث الموضـوعي عن خلفية المـوقف اليهودي هـذا، سننطلق من فـرضية ربمـا قادتنـا إلى فرضيـات أخـرى، حيث لا نملك ما يتعدى ذلك في بحث هذه المسـألة الشـائكة، لأن المـرويات التـاريخية تنـاولتها بصـورة عـامـة من خـلال ردّة الفعل، دون الإشارة إلى الفعل نفسه.

فالقبائل اليهوديـة الثلاث إنـطلاقاً من حضـورها القـوي في المدينة، قد تكون مساهمة بشكـل ما في التمهيـد للهجرة التي لم تصطدم باعتراضات مبدئية من جـانبها، ربمـا استجابـة لرؤيـة خاصة وحسابات أخرى. وقد يبدو مقبولاً القول أن ثمة قـاسماً مشتركاً أو حدّاً أدنى منه قد وحّد موقف المدينة من الهجرة ـ بمـا في ذلك اليهود ـ بعـد أن وجدت فيهـا نوعـاً من الاستقطاب لم يتيسر لها من قبل، خاصة وأنها ـ أي الهجرة ـ كانت تضم بـين

عناصرها المهاجرين تجاراً كباراً كان لهم شأنهم في «الإيلاف» القرشي، حيث لم يستطع اليهود ـ رغم المعطيات التجارية التي توفرت لهم ـ منافسته أو تحقيق حضور متكافىء إلى جانبه.

ومن هذا المنظور، لم يعارض اليهود دخول النبي ﷺ إلى أكبر معاقلهم في الحجاز ولم يتصدوا في البدء للهجرة، ربما انطلاقاً من القدرة على احتوائها بالسهولة نفسها التي رافقت «هجرة» الأوس والخزرج القديمة إلى يثرب، بغية اختطاف الثقل التجاري الاستقطابي إلى الأخيرة. ذلك أن الهجرة الإسلامية، لم تُفقِد اليهود شعورهم بالتفوق أو تلغي الثقة بالنفس عندهم، حيث يتجلى ذلك في قول بني القينقاع ـ أخطر القبائل اليهودية ـ للنبي : «لئن حاربتنا، لتعلمن إنّا نحن الناس»[41].

ومن البداهة القول إن النبي ﷺ كان شديد اليقظة إزاء موقف اليهود الغامض متعاطياً معهم بصورة واقعية وذلك من خلال صيغة «الموادعة» التي كانت نوعاً من الهدنة أكثر منها تحالفاً مستقبلياً ينطوي على حدود معينة من المصلحة المشتركة. فلم يمر سوى القليل جداً من الوقت، حتى اكتشف اليهود خطأ تقديرهم في تحقيق مشروعهم الاقتصادي «التوسعي»، ودفعهم ذلك مختارين قبل الإكراه، إلى عزلة اجتماعية كانت مقدمة المصير الذي انتهوا إليه. فقد وقعوا في مأزق الاختيار الخاطىء الذي راهنوا عليه، وهواستيعاب هجرة المسلمين من قريش التي

---

(٤١) الطبري ج ٢ ص ٢٩٧.

ضمّت أعضاء سابقين في «الملأ»، بما يعنيه ذلك من تنشيط لحركة التجارة في المدينة التي امسكوا بزمامها، دون العرب (الأوس والخزرج) المشتغلين في الزراعة بصورة عامة. كما سقطوا بعد ذلك في مأزق التحالف مع مكة لإنقاذ نفوذهم المتراجع، بعد افتقاد المبادرة أمام المزاحمة الشديدة، التي أوجدها توظيف خبرة تجارية عالية للمهاجرين، وأسلوب متفوق في التعامل، طرأ عليه كثير من التهذيب، تعارض في العمق مع طرائق الاحتكار ومصادر الكسب اليهودية، التي أصبح بعضها غير مشروع في ظل الدولة الجديدة.

مكة ـ فتحٌ وليس غزو

كان واضحاً منذ بدايات الهجرة أن النبي ﷺ آثر الحل الوفاقي مع مكة وذلك لاعتبارات إسلامية، حيث طليعة دولته من المهاجرين، وحجازية، ترتبط بالموقع الاقليمي والخارجي الذي مثّلته مكة وزعامتها في ذلك الحين.

ولعل السياسة الاقتصادية لدولة المدينة، شكلت أحد أركان التصدي للخطر القرشي وتلازمت بالتالي مع المواجهة العسكرية ضد مكة، وحلفائها من اليهود وبعض القبائل الحجازية. فلم تكن مصادفة تلك المحاولة البارعة لضرب التجارة القرشية تمهيداً لإسقاط مكة، ممثلة بمجموعة «السرايا» على خط القوافل الشهير[٤٢].

---

(٤٢) ابن حبيب، كتاب المحبّر ص ١١٠ تصحيح ايلزه ليختن شتيتر. دار الأفاق الجديدة بيروت، د. ت.

ولعل هذا الحصار الاقتصادي لمكة كان هدفه الضغط وليس «التجويع» كما يرى المستشرق الاميركي دونر DONNER[٤٣]. ولكن يبـدو أن بعض السلع الغـذائيـة قـد خفّ وجـوده في الحاضرة القرشية، لا سيما الحبوب التي كـانت تُستورد كميـاتها الأسـاسية، من مصر ـ عبـر مرفـأ الجار[٤٤] ـ ومن الشام ـ عبر الـطريق البري المـألـوف ـ حيث كـلاهمـا أصبـح تحت سيـطرة المسلمـين. ومن المثير أن يكشف هـذا الحصـار مـدى الضعف الـذي انطوى عليـه النظام المكّي، المـرتبط عضويـاً بالتجـارة، لا سيما الأسواق الشامية. وكانت الطريق إلى هـذه الأخيرة قـد أصبحت قلقة، بعد تهديد أمنهامن جانب «السرايـا» الإسلاميـة التي تمحورت على هذا الشريان الحيوي.

وفي ضوء هذا التطور الذي آلت إليه المواجهة بين التيارين: الإسلامي ـ الجُماعي في المدينة، والوثني ـ القبلي في مكـة، فإن الصراع يندرج حينذاك عبر محطات ثلاث بارزة:

١ ـ الحصار الاقتصادي وانعكاسه التمـويني والتجاري عـلى مكة، فضلاً عن تهديد القبائل «الإيلافية» على امتداد الطريق.

٢ ـ المواجهة العسكرية التي دامت نحو ثلاثة أعوام، وكانت محصلة حتميـة للحصار الاقتصـادي، حيث كان أول ردة فعـل

---

(٤٣) F. M. DONNER, Mecca's Food s[illegible] Muhammad's Boycott Journal of the Economic and So[illegible] history of the orient Vol XX, p 258.

(٤٤) المقدسي، احسن التقاسيم ص ٦٧.

عليه، خروج التاجر المخزومي الكبير (أبو جهل)، مع ألفٍ من اتباعه، ليس انقاذاً لقافلة أبي سفيان المهدّدة فقط، ولكن استعادةً لهيبة قريش وأمن التجارة على طريق الشام.

٣ ـ الصراع السياسي، من خلال مرحلة «الحديبية»، التي توّجت الانتصارات العسكرية والاقتصادية، فضلاً عن النفسية على مكة، حيث انتهى «الصلح» المعروف إلى تعزيز قوة المسلمين في الحجاز وإضعاف قريش ودفعها إلى العزلة، بعد رضوخها للأمر الواقع واعترافها بالدولة الإسلامية[٤٥].

ولم يعد خافياً بعد هذه المنجزات العظيمة، أن المستهدف بعد «الحديبية» لم تكن قريش، وإنما النظام الوثني ـ القبلي، الذي بدأ مرحلة الع[illegible] لعكسي منذ الهجرة، دون تجاهل ما تمثّله الأولى ـ رغم هزيمتها ـ من نفوذ، كان لا يزال هاماً في ذلك الحين. ومن هنا تثبت النتائج السريعة للحديبية، أن دخول «العمرة» في العام السابع، كان دخولاً سياسياً، فرضته التطورات المتلاحقة، التي جاءت بعد ذلك في نطاق برنامج زمني متماسك ومثير للدهشة. ومن هذا المنظور، يتفادى النبي ﷺ الحلّ العسكري في مكة ـ التي وُلد فيها وقضى الشوط الأعظم من حياته ـ محاولاً التوفيق ما أمكن، بين الإسلام الذي انطلق منها، وبين الشخصية التاريخية لحاضرة الحجاز الكبرى. ولعله من غير العسير بعد ذلك، معرفة استئثار مكة بـ«الفتح»[٤٦]

---

(٤٥) الطبري ج ٣ ص ٧١ وما بعدها.

(٤٦) العقد الثمين ج ١ ص ٣٣.

والدخول إليها «صلحاً»، دون المراكز الوثنية المعارضة في الحجاز، التي تمّ اخضاعها بـ «الغزو»[٤٧](حنين، هوازن، الطائف).

إغتيال «النموذج»

كان هذا الواقع مدخلاً إلى معادلة جديدة وفريدة، وهي سقوط مكة من دون قريش، التي استمرت على رأس السلطة بعد غياب النبي ﷺ، سواء مع الفريق «المهاجر» في العهد الراشدي أم غير المهاجر في العهد الأموي. على أن استبعاد الحسم هنا، لم يكن تسوية، بقدر ما كان استجابة لمرحلة لها سماتها الحجازية، حيث أوجدت هذه المعادلة نوعاً من التوازن القرشي ـ القرشي، خلال عقدين من الزمن في الدولة الثانية (الراشدية)، وذلك بعد سقوط التوازن القرشي ـ الأنصاري، الذي شكّل الأرضية الاجتماعية للدولة الأولى.

لقد ظهرت هذه المعادلة في ظل اتجاه سياسي جد يد، غلب عليه الاعتدال، أو ما يمكن أن نسميه بالاتجاه «الوسطي»، الذي استمد بعض ملامحه من الشخصية القرشية القديمة، حيث كانت «الوسطية» من أسباب نجاحها واستمرارها خلال الفترة الذهبية من العصر القرشي. وهذا سيؤدي إلى تعزيز النهج السياسي الذي بـ ِ حينذاك، وعبّر عن ذاته من خلال مقولات منسوبة إلى الخليفة الأول، في معرض التأكيد على زعامة

---

(٤٧) الطبرى ج ٣ ص ١٢٥.

قريش في الإسلام، حيث رآها «أمة وسطا»[٤٨] و«أوسط العرب داراً ونسباً»[٤٩]، إلى آخر ما نُسب إليه في هذا المجال. ومن البديهي أن يحمل هذا الاتجاه، الكثير من ظروف المرحلة وتعقيداتها، في وقت كانت ترهص بهذا الفرز السياسي الحتمي، بعد غياب الشخصية المؤسسة والموحّدة للمجتمع والدولة.

ولكن الدولة «الثانية»، إذا كانت قد وُلدت في ظلّ هذه «الوسطية» القرشية في عهد الخليفة الأول، إلا أنها استطاعت الخروج منها إلى التوازن القرشي، الذي شكل انطلاقة هامة في ذلك الحين، حيث نجح الخليفة الثاني في تحقيق «النموذج» الملائم، متجاوزاً الدائرة الحجازية، إلى دائرة أكثر شمولية، فرضتها المتغيرات التي واكبت حركة الفتوح ومشكلاتها المعقدة. فقد أسفر ذلك، وعبر مرحلة زمنية سريعة عن ولادة صيغ جديدة في التعامل، سواء بين السلطة والمجتمع أو بين الدولة والقبيلة، كانت في الحقيقة من نتائج ذلك «النموذج»، الذي تجسّدت صورته المثالية، في قيام دولة كدولة الراشدين، ومجتمع كمثل المجتمع الراشدي، وزعامة نقية كتلك التي انتجتها المرحلة المبكرة من ذلك العهد، حيث دان ذلك كله للخليفة عمر بن الخطاب، رجل التوازنات الحاذق، وصاحب تلك الصيغة ـ التجربة، التي كانت لها فرادتها على صعيد الممارسة والتنظير في آن.

---

(٤٨) الطبري ج ٣ ص ٢٠٣.

(٤٩) الإمامة والسياسة (منسوب لابن قتيبة) ج ١ ص ٦.

ولعل هذا «النموذج»، اكتسب جذرية خاصة في السنوات الأخيرة من عهد الخليفة، وذلك من خلال تجاوز «الوسطية»، التي عبّرت كنهج سياسي عن مرحلة معينة، دون أن تكون بالضرورة ملائمة لأخرى أكثر صعوبة، وتحتاج بالتالي إلى حسم لقضايا معلقة، قديمة أو مستجدة. ولا نحتاج إلى كثير من التفصيل، لإبراز هذا التحوّل، الذي تجسّد على مختلف المستويات الإدارية والعسكرية والاقتصادية، ولكننا سنتوقف عند بعض الوقائع اللافتة، مثل إبعاد عشيرته عن السلطة (ذوي القربى) وكبح طموح الصحابة (ذوي السابقة) وتحجيم القيادات العسكرية اللامعة (ذوي البلاء)، فضلاً عن مراقبة المداخيل والحد من الاثراء غير المشروع للولاة وكبار الموظفين، من خلال نظام «المقاسمة»[٥٠]، إلى آخر هذه المبادرات الهامة والجريئة.

وكانت هذه السياسة تعكس بوضوح، المنحى الذي صمم الخليفة القوي على اتخاذه، وصولاً إلى تحقيق الدولة ـ النموذج، التي كان مقدراً لها أن تحمل الطموح الإسلامي لدولة الغد والأيام الآتية. ولكن هذه التجربة، افتقدت على الأرض المقومات الكافية لاستكمالها، في وقتٍ كان على صاحبها أن يتخذ سياسة أكثر التزاماً وجذرية، إزاء قضايا اجتماعية واقتصادية، لم تكن مطروحة من قبل، وفي وقت أخذ التلاؤم الجغرافي ينعدم أو يكاد في الدولة الإسلامية، بعد تفريغ

---

(٥٠) إبراهيم بيضون، الدولة الأموية والمعارضة ص ٧٥.

الحجاز ـ مقر الأخيرة ـ من طاقته الشابة، وتبعيته الاقتصادية للأمصار، التي أصبحت مركز الثقل في الدولة الواسعة.

وهكذا كان سقوط الحجاز الراشدي، أمراً واقعاً، بل حتمياً، في أعقاب الفترح ومستجداتها، من العطاء إلى الضرائب، إلى المشكلة الاعقد وهي الأرض[٥١]. بالإضافة إلى ذلك فإن عزلة الحجاز، تزامنت مع نمو زعامات جديدة في الأمصار، مستفيدة من ضعف أو إضعاف السلطة المركزية، وذلك عبر تحريك العصبيات، التي كان الخليفة يعمل على كبحها وتهميشها، ما استطاع سبيلاً إلى ذلك. ويصبح هذا السقوط الحجازي، مقدمةً لسقوط الدولة «الثانية»، ذلك النموذج الذي اغتيل عملياً مع اغتيال الخليفة، بعد أن استهدفته أو ضاقت به العصبيات الجديدة، إثر نجاحها في «اختراق» الجبهة الإسلامية وتضليل بعض وجوهها البارزة.

بيد أن النموذج الذي انطلق من «البداية» العظمى مع دولة المدينة، لم يفقد وهجه على الصعيد النظري، حيث تمسّكت به كلٌّ من السلطة والمعارضة على السواء، ولكن لأغراض وأهداف مختلفة. فقد استمدت منه الأولى مظلتها الشرعية، واختبأت وراء شعاراته الجاذبة، بينما تحوّل إلى سلاح جدلي لدى أطراف الثانية، التي رأت فيه، على اختلاف مواقعها،

(٥١) أبو عبيد، الأموال ص ٨١، تحقيق محمد خليل هراس. مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ـ ١٩٦٢.

الإطار الشرعي الحقيقي للدولة الإسلامية، التي اقتصر وجودها على تلك الفترة المبكرة من القرن الهجري الأول. ولم يكن ثمة ما يحول دون امتداده في شرايين القرون اللاحقة، ممثّلاً البديل الدائم للحركات المتمسكة بالشوروية الراشدية، ودون ثمة ما يحول أيضاً، من انعكاسه المباشر على الفكر السياسي الإسلامي في القرن الخامس عشر.



حملـــــة مـــؤتـــة

مقاربة للمشروع السياسي الأول للدولة الإسلامية في بلاد الشام

مدخل

تكتسب «مؤتـة» خصوصيـة ما في التـاريخ الإسـلامي لبلاد الشام، انطلاقـاً من اقترانها ـ عـلى غموض «غـزوهـا» والتبـاس بعض تفاصيله ـ بأحد أخطر قرارات النبي ﷺ بعد الهجرة. ولكن المدخل الجغرافي إليها، قد لا يشكل عنصراً متوازناً مع العناصر المختلفـة، التي أسهمت في تكـوينهـا التـاريخي العـام، حيث انعكس عليها بريق القادة الثلاثة الذين سقطوا تباعاً في معركـة مبهمة، باستثناء تفاصيلها في «المدينة» التي تمحورت أيضاً حول هؤلاء القـادة الصحابيين، المقربين من النبي ﷺ والحائزين علـى ثقته[1].

ولعلها بقيت مجرد «قرية» منسية حتى العام السابع الهجري، حين قرر النبي ﷺ إخراج دولتـه من عـزلتهـا الحجـازيـة وتجـاوز

---

(١) راجع الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢، الـواقـدي، كتـاب المغازي، ج ٢ ص ٧٦٧، ابن هشـام السيرة النبـويـة القسم الثـاني ص ٣٨٠.

الصراع الداخلي مع قريش، الذي أخذت تضيق دائرته ويتراجع خطره على المدينة، بعد فشل «غزوة الأحزاب» في العام الخامس. فقد أثبتت هذه الدولة حينذاك قدرتها على الصمود والخروج سالمة من التحديات الخطيرة التي واجهتها، سواء في القضاء على اليهود وتفشيل حركة «النفاق» في الداخل، أو في استيعاب الصراع مع الوثنية ومراكز النفوذ القبلي، الدائرة في فلكها، فضلاً عن فرض هيبة الدولة على خطوط التجارة في الحجاز، والتطلع إلى مدى أوسع لها، حيث التخوم الشامية المتداخلة جغرافياً وقبلياً[٢]، مما سيقودها تحت تأثير هذه المتغيرات إلى اتخاذ خطوات عملية، تحمل معها بذور مشروع سياسي واضح المعالم، وهو التحوّل من دولة المدينة، الحجازية الملامح، إلى الدولة الإسلامية الكبرى، الأكثر تعبيراً عن عالمية الدعوة، وذلك على غرار حملة مؤتة التي كانت الخطوة الرائدة في هذا السبيل.

ومن هذا المنظور، سيكون علينا البحث في الموقع الجغرافي لمؤتة، من زاوية الانعكاس على العلاقة بين الحجاز والشام، أكثر من الاهتمام بالموقع نفسه، حيث بدا هذا الأخير هامشياً على كافة الصعد، دون أن ننفي صلتها ـ أي مؤتة ـ بشكل أو بآخر، بمراكز النفوذ المحيطة بها، سواء كانت قرشية (الحجاز)

---

(٢) راجع التوزيع القبلي في بلاد الشام عشية ظهور الإسلام وتأثيره في انعدام العوائق الجغرافية مع شبه جزيرة العرب. صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام ص ١٧.

أو بيزنطية (الشام). على أن مؤتة لم تندرج بين قصبات أو مدن الأخيرة، أو حتى بين محطاتها التجارية التي ارتادتها القوافل المكية خلال القرن السادس الميلادي[٣]. وإذا ما رجعنا إلى المصادر الجغرافية، نجد أنها تجمع أو تكاد على اعتبارها قرية صغيرة، دون ثمة إشارة إليها قبل العام الهجري الثامن، أي عام الحملة الآنفة الذكر، فقد وُصفت بأنها من أرض البلقاء، حيث تقع بضع محطات، مثل تبوك ومعان وأذرح وأيلة ومدين، ولكن دون أن يتردد ذكرها بين هذه المحطات المعروفة. فهي في «بلدان» اليعقوبي «قرية من أرض البلقاء»[٥]، وفي «تقاسيم» المقدسي من «قرى» مآب الواقعة في البلقاء أيضاً[٦]. وفي «آثار» القزويني تكرار لما أورده سابقاً، بأنها «من اعمال البلقاء من حدود الشام»[٧]، لافتاً في الوقت نفسه إلى سيوف اشتهرت بصناعتها ونسبت إليها وهي المعروفة بالمشرفية[٨]، دون أن يكون واضحاً، إذا ما كان لهذه التسمية

---

(٣) راجع ابن رستة، الاعلاق النفيسة ص ١٨٣ واليعقوبي، البلدان ص ٣٣٦ والمقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٥٥. راجع أيضاً:
D. O, LEARY Arabia, Before Muhammad. p 182.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم ص ١٥٥.

(٥) البلدان ص ٣٣٦.

(٦) أحسن التقاسيم ص ١٧٨، راجع أيضاً الأب أ. س مرمرجي الدومنيكي، بلدانية فلسطين العربية ص ٢٢٤ ومحمد كرد عليّ، خطط الشام ج ١ ص ١٠٩.

(٧) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٧٥.

(٨) راجع قول الشاعر في هذا المعنى:

أبي الله للشمّ الأنوف كأنهم ۝ صوارم يجلوها بمؤتة صيقل

علاقة بـ «مشارف»، القرية المجاورة لها[٩]، أو أنها عائدة إلى موقعها الجغرافي على «مشارف الشام»[١٠] على حدّ تعبيره.

وفي «أصنام» ابن الكلبي، لا توجد أية إشارة إلى مؤتة، في معرض الحديث عن البلقاء التي كان يتم التردد إليها منذ «العهد الخزاعي» في مكة[١١]. أما كتب الرحلات فقد أغفلتها أيضاً، إلا من اشارات عابرة إلى «مزارات» الشهداء الثلاثة، وذلك على غرار «الظاهري» الذي مرّ بالقرب منها ولكن دون أن يأتي على ذكرها، مما يبعث على الاعتقاد بأنها لم تكن عامرة في العصر الأيوبي، حيث مرّ الرحالة الآنف الذكر[١٢].

على أن غياب مؤتة عن صفحات الجغرافيين والرحالة، إلا من خلال الغزوة الشهيرة ومزارات قادتها، قد لا يماثله ما كانت عليه في «العصر القرشي»، حين كانت مكة تعتمد في تسيير قوافلها على قبائل هذه المنطقة، عبر منظومة الايلاف[١٣]

= المكان نفسه. وكذلك قول الشاعر:

ومـا بكم صبر عـلى مشرفيـة — تعضُّ فِراخ الهام أو تستطيرُها

كتاب النقائض. المجلد الأول ص ١٢. وقد ورد في شرح هذا البيت أن «المشرفية سيوف تطبع بالمشارف والمشارف القرى ما بين الريف والبدو» النقائض ص ١٢.

(٩) ياقوت، معجم البلدان ج ٥ ص ٢٢٠.

(١٠) آثار البلاد ص ٢٧٥.

(١١) كتاب الأصنام ص ٨.

(١٢) كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ٩٣.

(١٣) عن مضمون الإيلاف، راجع: البلاذري، أنساب الأشراف ج ١ ص ٦٠ (تحقيق إحسان عباس) والطبري ج ٢ ص ١٨.

محور تلك «الامبراطورية» التجارية التي قادتها مكة في ذلك الحين. فهي - أي مؤتة - إن لم تكن على امتداد الخطّ الشهير الذي كان يجتاز عدداً من المحطات الهامة، إلا أنها كانت في قلب هذه الدائرة الحيوية أو في الفلك منها، تلك التي عُرفت بالبلقاء وضمّت أشهر القبائل التخومية النافذة، من أمثال: لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلّي التي كانت في الغالب تهدين بالمسيحية، ومعها الولاء للحكم البيزنطي[١٤]، الذي يسيطر على المنطقة حتى أعالي الحجاز.

ويبدو أن قبائل التخوم المنتشرة في البلقاء، كانت على شيء من التماوج في علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية في ذلك الحين. فقد كان ولاؤها الفعلي بيزنطياً، ولكن دون أن يكون العامل الديني وحده، محرّك هذه العلاقة، التي كان الجانب الاقتصادي فيها ظاهراً، حيث حرص البيزنطيون على تمتين الروابط المصلحية مع رؤساء القبائل، عبر تقديم الهدايا أو دفع الرواتب الثابتة، تشجيعاً لهم على القيام بدورهم في حماية الحدود البيزنطية من غارات البدو أو هجمات الفرس[١٥]، دون أن ن نغفل أيضاً أهمية التجارة والأسواق التي كانت تشرف عليها الدولة البيزنطية، في إطار سياسة اقتصادية

---

(١٤) ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول ص ١٧٢. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٤ ص ٢٤٣.

(١٥) محمد كرد علي، كتاب خطط الشام ج ١ ص ١٠٥. جواد علي، المفصل ج ٤ ص ٢٤٣.

وضرائبية محددة[١٦]. ولكن هذه التبعية لم تكن مطلقة، كذلك العلاقة التي شابها الالتباس بعض الأحيان، حيث كان على قبائل البلقاء أن تتأثر أيضاً بالرياح الجنوبية، في وقت تألقت فيه مكة شهرةً ومركزاً استقطابياً هاماً، دون أن تستطيع الدولة البيزنطية على قوتها، أن تنال من هذا الموقع أو تنجح محاولتها في السيطرة عليه، حين اصطنعت لهذه الغاية تاجراً من قريش وهو عثمان بن الحويرث (من أسد بن عبد العزى)، الذي كان يدين بعقيدة هذه الدولة[١٧]. وكانت لمكة في الواقع علاقات وثيقة مع تلك القبائل التي ارتبطت مصالحها ـ ربما بصورة متفاوتة ـ مع تجارة الأخيرة[١٨]، على نحو قد يفوق أحياناً ارتباطاتها بالدولة البيزنطية، التي كانت سياستها الاحتوائية، سواء على الصعيد الديني أم الاقتصادي، تصطدم بالنزعة القبلية الفردية، مما أدى إلى ضمور هذه العلاقة لا سيما في الأعوام الأخيرة من القرن السادس الميلادي[١٩].

ولعل أبرز مؤثرات هذا الوضع الجغرافي لمنطقة البلقاء، بما

---

(١٦) O, LEARY, Arabia Before Muhammad P 187

(١٧) راجع: ابن إسحاق، كتاب السير والمغازي ص ١١٥ ـ ١١٦ وابن حبيب، المحبّر ص ١٧١ واليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج ١ ص ٢٥٧. وراجع كذلك تفاصيل هذه الرواية لدى الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ص ١٠٨ ـ ١٠٩. راجع أيضاً:
Lammens, L, Arabie, Occidentale avant l'Hégire P 38 - 39.

(١٨) راجع كتابنا: الحجاز والدولة الإسلامية ص ٧٦ وما بعدها.

(١٩) المرجع نفسه ص ٧٩ ـ ٨٠.

فيها مؤتة، أنها كانت تعتبر امتداداً طبيعياً للحجاز، الذي كـان بالإضافة إلى دوره التجاري البارز، يرهص بمتغيرات جذريـة، ستكون أكثر انعكاساً على هذه المنطقة من خلال عدة وسـائل، لا سيما التجارة التي امتدت شرايينها حتى مدينة بصرى، السوق المـركـزية لبـلاد الشـام، والـواقعـة عـلى التخـوم الشمـاليـة للبلقاء[٢٠]. ويبدو أن البيزنطيـين كانـوا غير قـادرين على ضبط المسألة التخومية مـع الحجاز، في وقت كـان هؤلاء يعملون على استـرداد الجيوب التي خـرجت عـلى نفـوذهم في أطـراف شبـه الجـزيرة، بعـد أن تعرّض ولاؤهـا للاضـطراب خـلال الحـرب الفارسية ـ البيزنطية، التي هزّت المـواقع والتحـالفات القـائمة، مما جعل ضبط الوضع القبلي في هذه المنطقة، أمـراً على جـانب كبير من الصعوبة. وكانت السياسة البيزنطيـة قد أسهمت ربمـا عن غـير قصد، في تـداعي «الحاجـز» الذي اقـامته بينهـا وبين قبـائـل شبـه الجـزيـرة أو أطـرافهـا، تحت ضغط تلك الحـرب الـطويلة، التي لم يصب تأثيـرها الـدولتين المتصـارعتـين فقط، ولكن انعكس بصـورة عميقة عـلى كـافـة المـنطقـة خـلال نيف ونصف قـرن من الـزمن[٢١]، خصـوصـاً وأنها جـرت في قلب «الحاجز» الشهـير أو «أدنى الأرض»، استناداً إلى سـورة الروم، التي تعني «أذرعات» حسب مروية ابن الأثير[٢٢].

---

(٢٠) ابن خرداذبة، المسالك والممالك ص ٩٧. جواد علي، المفصّل ج٣ ص٤٩.
(٢١) رضوان السيد، الأمة والجماعة والسلطة ص ٢٣.
(٢٢) الكامل في التـاريخ ج ١ ص ٤٧٩. راجـع أيضاً محمـد كرد عـلي، خطط الشام ج ١ ص ١٠٤.

أما المحصّلة الأخيرة لخلفيات «مؤتة» كحملة عسكرية رائدة إلى الشام، فقد بدا واضحاً أنها لم تكن تحركاً عفوياً اتخذ طابعه الثأري ضد من وصفته المرويات بأنه أمير لهذه «القرية»، وإنما فرضته في المقام الأول مستجدات المرحلة، حيث الطريق مفتوحة والقبائل متداخلة الانتماء والمصالح، دون أن يعيق ذلك، تعارض الولاء الذي بدا واهياً حيناً ومختَرقاً بعض الحين، فضلاً عن معرفة النبي ﷺ التفصيلية بمجمل هذه المعطيات ومتابعته عن كثب أخبار الشام، لا سيما قرى التخوم وقبائلها المتنصرة.

اشكاليات العلاقة مع البيزنطيين

إن بحث مسألة مؤتة، لا بد أن يعيدنا إلى مناقشة أبعاد العلاقة بين النبي ﷺ والبيزنطيين التي أخذت ملامحها في الظهور، منذ العهد المكي من الدعوة الإسلامية. فثمة اختلاف في الموقف الإسلامي ما بين هذا العهد وبين العهد المدني، كان خاضعاً لتغير الظروف والمعطيات الجديدة، بعد أن تمّ للمسلمين تجاوز المأزق المكي والانتقال من «دار الاضطهاد» الى «دار الهجرة»، بكل ما يعنيه هذا التحوّل، كمدخل إلى قيام الدولة الإسلامية أو نواتها في المدينة، بينما كان الإسلام في العهد الأول يبحث عن مستقر له، ويتوسل الحلفاء الاقوياء لدفع الخطر المتربص به من جانب قريش، التي اشتبكت مصالح وعلاقات مع القوى السياسية والقبلية في شبه الجزيرة وأطرافها[٢٣]. ومن اللافت جداً أن يدخل الإسلام حينذاك،

(٢٣) الطبري ج ٢ ص ١٨٠.

وهو بعد مجرد دعوة متعثرة، في خارطة التحالفات السياسية حين أوفد النبي ﷺ أولئك الذين عرفوا بـ «المهاجرين الأوائل»[٢٤] إلى الحبشة، دون أن يكون اختيارها مصادفة، وأن يكون ملكها (النجاشي) «يحسن الجوار»[٢٥]، كما نُسب للنبي ﷺ في وصيته لأصحابه المهاجرين.

والواقع أن حسن الجوار مع الحبشة افترض مثيلاً له مع الدولة البيزنطية، حيث ارتبطت كلتاهما بمصالح وأهداف مشتركة، ما دامت لشبه الجزيرة أهمية ما، زراعية كانت أم تجارية. ولم تكن حملة الحبشة الشهيرة (٥٧١ م)، التي تزامنت - عبر مؤثرات داخلية وخارجية - مع اليمن كمركز حضاري متألق وبداية الصعود المكي، منفصلة عن هذه العلاقة المصلحية بين الدولتين، دون أن يكون خافياً ما انطوت عليه الخطوة الثانية للحملة، التي استهدفت الحاضرة الحجازية، المسكة حينذاك بزمام حركة التجارة الشرقية، تمهيداً للاتصال بمراكز نفوذ البيزنطيين في الشام[٢٦]، فضلاً عن الخطوة الثالثة التي أعدّها هؤلاء بعد نحو عشرين عاماً (٥٩٠ م)، واستهدفت السيطرة على مكة عبر تنصيب نصراني من قريش عليها[٢٧]، كما أسلفنا الإشارة، تعويضاً عن خسائرها في

---

(٢٤) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٢٩.

(٢٥) المكان نفسه.

(٢٦) جواد علي، المفصّل ج ٧ ص ٢٨٣.

(٢٧) الفاسي، شفاء الغرام ص ١٠٨ - ١٠٩.

جنوب شبه الجزيرة. وكان من البديهي أن تؤدي الحرب الفارسية، المسبوقة بانتزاع اليمن من الأحباش لمصلحة الدولة الساسانية، إلى تمتين العلاقة بين الحليفين التقليديين (البيزنطيون والأحباش)، بعد إضافة عنصر جديد إلى القواسم المشتركة العديدة بينهما، بسبب ما لحق مصالحهما من ضرر، في أعقاب الخروج من الشام وشبه الجزيرة، مما يعني أن مصادر السلع وأسواقها، باتت بشكل أو بآخر تحت سيطرة الفرس الساسانيين.

ولعل هذه الحرب كانت أول محنة خارجية تواجه مكة وتربك تجارتها، إذا ما استثنينا المحنة الداخلية التي جسدتها حروب الفجار الشهيرة[٢٨]. ذلك أن قريشاً، التي وجدت نفسها أمام قوة كبرى جديدة، مهيمنة على أسواق الشام، لم يكن في متناولها الخيار المناسب، فيما يتعدى ترويج تجارتها، دون التوقف طويلاً عند الحليف الذي يرتبط به تسهيل هذه المهمة. ومما زاد الأمور تعقيداً في ذلك الحين، أن السلطة الفعلية في مكة آلت إلى كبار التجار، المتكتلين في إطار ما سُمي بـ «حلف المطيبين»[٢٩]، المتزامن مع طغيان المضمون الاقتصادي للإيلاف وتراجع الاتجاه التعاوني (التكافلي) فيه[٣٠]، الذي

---

(٢٨) ابن الأثير، الكامل ج ١ ص ٥٩٣، السهيلي، الروض الأنف ج ١ ص ٢٠٩.

(٢٩) المسعودي، مروج الذهب ج ٣ ص ٣٣.

(٣٠) القرآن الكريم، سورة قريش، البلاذري، أنساب ج ١ ص ٦٠، المسعودي، مروج ج ٣ ص ٣٣.

كـانت له فـرادتـه في مكـة، وشكّـل العنصر الأقـوى في تحقيق الأمن السياسي والتجاري، بالمقارنة مع الحواضر الحجازيـة التي حاولت منافستها خلال القرن السادس.

وكـانت ثمة سيـاسة خـارجية لـلإسلام أو مـلامح لهـا، قد ظهرت حينذاك في مكة[٣١]، ستؤدي إلى إعادة النـظر في النهج القـرشي التقليـدي، القـائـم أساساً على التوازن، إن لم نقل الحيـاد، في العلاقـة مع القـوى المهيمنة عـلى خطوط التجـارة، لا سيما المتصلة بأسواق الشام. فقد كانت الـدعوة الإسـلامية، الراصدة عن كثب ما يجري على تخوم شبـه الجزيـرة وأطرافهـا، تطرح نفسها، القوة «الدولية» البديلة، دون أن تكون مقيدة بما ارتهنت له قريش من تحالفات مصلحية، كانت تنعكس مباشرة على قرارها السياسي، الذي بدا مرتبكاً أمام تطورات المرحلة، في وقت اتخـذت فيـه سيـاسـة الـدعـوة نهجـاً آخـر، كـانت الاستقلالية من أبرزَ سماته، مجسداً ذلك الفارق بين مشروعين متناقضين في العمق، حيث اتخـذ كل منهـما المساحـة السياسيـة والحضارية الخـاصة بـه، أو الفارق بـين «الدولـة» التي توجهت منذ انطلاقهـا، كدعـوة، إلى مراكـز الاستقرار الأكـثر استيعاباً لتطلعاتها[٣٢]، وبين «المـلأ»، الذي كـانت تتخذ فيـه قريش، ربما من حيث المبدأ فقط، قراراتها الهامة.

وهكـذا تكـون الهجـرة إلى الحبشـة، نـواة هـذه السيـاسـة

(٣١) ابن إسحاق، السير والمغازي ص ١٨٩ وما بعدها.

(٣٢) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية ص ١٠٣.

الخارجية للإسلام، وبالتالي ضربة لـ «دبلوماسية» التوازن القرشي، التي بدت عاجزة عن مواكبة المتغيرات، لا سيما بعد فشل المحاولة في التأثير على «النجاشي» واستعادة المهاجرين المسلمين[٣٣]. وإذا كانت الشام وتجارتها، الأكثر بروزاً في السياسة الخارجية لقريش، فإنها لم تكن غائبة عن الدعوة التي خرجت من بيئة كانت التجارة مصدر الارتزاق ومحور العلاقات الاجتماعية فيها. كما كانت الشام التي خرج إليها النبي ﷺ يافعاً وشاباً، وخرج إليها عدد من أوائل «جماعته»[٣٤]، حاضرة، بل شديدة الحضور، في القرار الإسلامي، حيث نجد الصدى القرآني لهذه المسألة في سنوات الدعوة الأولى، من خلال «سورة الروم» أيضاً، التي أشارت إلى التناقض البيزنطي ـ الفارسي ومحاولة الافادة منه، دون ثمة ما يحملها ـ أي الدعوة ـ على مواجهة الطرفين أو أحدهما مباشرة، أو من خلال الأطراف العربية التابعة لهذه الدولة أو تلك.

وإذا ما توقفنا عند مطلع هذه «السورة» : **﴿غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين. لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾**[٣٥] ـ ندرك الحضور البارز للشام من خلال هذا السياق القرآني، وندرك الاهتمام

---

(٣٣) ابن إسحاق ص ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣٤) المصدر نفسه ص ٨١.

(٣٥) سورة الروم ـ الآيات ١ ـ ٤.

المبكر للدعوة بهذه المنطقة، وما يقتضيه ذلك من موقف إزاء التطورات المختلفة التي تجرى على أرضها. ويأتي التسويغ الفقهي لهذه «الآيات»، بأن المشركين من قريش، اغتبطوا لهزيمة الروم ـ وهم أهل كتاب ـ أمام الفرس المجوس، مما يعني الهزيمة أيضاً لفكر الدعوة ومعها عقيدة التوحيد[٣٦]. وفي غمرة الجدل الذي أثارته الحرب في مكة، كانت هذه «الآيات» الأولى من سورة الروم، التي بشّرت بقرب غلبة البيزنطيين «في بضع سنين» على أعدائهم الفرس، ومعها تكريس انتصار التوحيد على الشرك، والإيمان على الكفر[٣٧]. أما التسويغ التاريخي، فهو أن هذه «الآيات» ـ إضافةً إلى ما سلف ـ تطرح بصورة جلية، الأصول «الإيديولوجية» للطرفين المتصارعين على تخوم شبه الجزيرة، وفي عالمها الجغرافي والثقافي، حيث كان المسلمون أقرب «إيديولوجياً» إلى عقيدة البيزنطيين (المسيحية) منهم إلى عقيدة الفرس (الزرادشتية)، فضلاً عن الجانب السياسي فيها، وهو أن هزيمة البيزنطيين، لم تقض على نفوذهم تماماً في المنطقة، حيث دارت رحى الحرب، ولكنهم احتفظوا بجيوب مؤيدة لهم في أطراف شبه الجزيرة وبالقرب منها، مما يعني أن الوقوف ضدهم، وهم لا يزالون في موقع القوة، لم يكن في مصلحة

---

(٣٦) سيد قطب، في ظلال القرآن ـ ٦ ص ٤٣٤.

(٣٧) المكان نفسه، راجع أيضاً: رضوان السيد، الوعي التاريخي العربي والكتابة التاريخية العربية. مجلة الفكر العربي عدد (٢٧) ص ٧. (١٩٨٢).

الدعوة التي لم تخرج بعد من المعاناة ومن حصار الاضطهاد القرشي في ذلك الحين.

وفي الوقت الذي تورطت قريش في هذا الصراع، معيدة النظر في المعادلة التقليدية التي اختلت مع المتغيرات الشامية، كان النبي ﷺ مستوعباً أبعاده على مختلف الصعد الجغرافية والسياسية والقبلية، حيث بلغ من الحدّة في مطلع القرن السابع، أن اضطربت معه الصيغ والتوازنات، دون أن تنجو قريش نفسها من سلبياته، بعد ازدياد ضغط الدولتين المتصارعتين على أطراف شبه الجزيرة والتدخل المباشر في شؤونها، سواء في الشام أو في العراق[٣٨]. وهكذا فإن اشكالية العلاقة مع البيزنطيين، وضعت الشام في أولويات اهتمام النبي ﷺ بعد الهجرة إلى يثرب، متجاوزاً في الأخيرة، التنظير القرآني الذي تصدى لمسألة شائكة ودقيقة في حياة عرب الحجاز، إلى الواقع الذي اتخذ بعداً آخر، لم يعد فيه الموقف الإسلامي محكوماً بالتعاطف مع البيزنطيين أو بـ «الفرح»[٣٩] لعودتهم إلى الشام، بعد أن أصبح الطرفان في المواجهة لا سيما بعد السنوات الأولى من الهجرة، التي شهدت تطورات خطيرة، سواء على مستوى شبه الجزيرة، أم على مستوى الصراع البيزنطي ـ الفارسي، الذي خرجت منه الدولة الساسانية منهوكة ممزقة، واحتدم الصراع فيها على الحكم، الذي كان من

(٢٨) رضوان السيد الوعي التاريخي العربي، مجلة الفكر العربي عدد ٢٧ ص٧.
(٣٩) سورة الروم الآية ٣.

نتائجه سقوط «كسرى أبرويز»[٤٠]، بعد وقت قصير من «تمزيقه» لكتاب النبي ﷺ الذي حمل إليه الدعوة إلى الإسلام، حسب الرواية التاريخية[٤١].

مقدمات الحملة إلى مؤتة

لقد أثبتت وقائع ما بعد الهجرة، أن النبي ﷺ كان يتطلع إلى الشام، كهدف حيوي لدولته، دون أن يتعارض ذلك مع هدفه المركزي، وهو ضرب قاعدة الوثنية في الحجاز (مكة). ولعل القضاء على الأخيرة كان متكاملاً مع التحرك باتجاه الأولى، تأكيداً لحتمية جغرافية ـ تاريخية، دون أن تكون الأعمال العسكرية الضيقة التي انطلقت في بدايات الهجرة، سوى تعبير عن هذا التكامل، بدءاً بالسرايا الصغيرة التي تمحور جزء كبير منها على طريق الشام[٤٢]، وانتهاء بـ «الفتح» الكبير لمكة الذي جاء محصّلاً لحملة مؤتة، أولى المحاولات الجدّية لاختراق الحاجز القبلي (المسيحي) إلى الشام. فإذا كانت هذه السياسة قد نجحت في فرض الحصار بحدود ما على مكة، وما عكسه ذلك

(٤٠) اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ١٧١، ابن الأثير، الكامل ج ٢ ص ٢١٤ - ٢١٥.

(٤١) ابن الأثير، الكامل ج ٢ ص ٢٠٣.

(٤٢) الواقدي، كتاب المغازي ج ٢ ص ٥٥٣ ـ ٥٦٦، ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ج ٢ ص ١٠٨.

من اضطراب في الداخل، ربما طرح المسألة الغذائية فيها(٤٣)، فقد كانت موجهة في الوقت نفسه، لضرب المنظومة الإيلافية، القوة المحركة لتجارة قريش، وذلك بتحويل خطّها الشامي إلى منطقة غير آمنة، وبالتالي التأثير على موقف القبائل «المتآلفة» معها، بعد ضرب القاسم المشترك بين الطرفين.

ولعل متابعة التحرك العسكري للمدينة قبل مؤتة، تطرح مسألة خارج نطاق المصادفة، سواء في اتخاذ غالبية السرايا النبوية محورها على طريق الشام أو حواليه، أم في تولي زيد بن حارثة، الشامي المولد، والمتحدّر من قبيلة (كلب بن وبرة) اتخذت منازلها بجوار دومة الجندل(٤٤)، قيادة عدد غير قليل منها حيث تكثفت في هذا الاتجاه خلال العام السادس للهجرة، وكان من أبرزها

(٤٣) F. M. DONNER, Meccas Food supplies and Muhammad's Boycott. Journal of the Economic and Social history of the orient, Vol XX part. p 256.

الواقع أننا نختلف مع Donner الذي يعتقد بأن النبي كان يعمل على تجويع مكة من خلال قطع طريق الشام. ذلك أن مكة كانت حتى في زمن الحصار هذا، قادرة على تلقي السلع عبر عدة طرق، دون أن ينفي ذلك ما تعرضت له من ارتباك كان يبلغ معها حدود الأزمة، لا سيما بعد اغلاق مر أ «الجار» في وجهها الذي كانت تعتمد عليه في استيراد الحبوب من مصر، وذلك بعد أن أصبح ة ت سيطرة المدينة. راجع المقدسي، أحسن التقاسيم ص ٩٧.

(٤٤) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٤٠. دائرة المعارف الإسلامية ج ١١ ص ١٠.

سرية «العيص»[٤٥]، في سبعين ومائة راكب[٤٦] «لاعتراض عير لقريش اقبلت من الشام»[٤٧]، وسرية «حسمى»[٤٨]، التي تقع وراء وادي القرى، وكان سببها أن رجلاً يقال له دحية الكلبي، كان عند قيصر في الشام، فأجازه «بمال وكساه فلقيه ناس من جذام فقطعوا عليه الطريق وأصابوا كل شيء»[٤٩]، ولم تشر الرواية في سياقها إلى دور هذا الرجل أو علاقته بالنبي ﷺ، إلا أن اسمه يتردد فيما بعد عندما أوفده إلى هرقل ومعه كتاب الدعوة إلى الإسلام[٥٠]. وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً لخروج هذه السرية، التي تشكلت من خمسمائة رجل بقيادة زيد بن حارثة، واتخذت طريقها إلى «حسمى» ـ مكان الاعتداء على دحية ـ بغية الانتقام له[٥١]. على أن هذه المهمة لا تعدم خلفية ما تجاوزت هذا الدافع الثاري، لتصبح أكثر تكاملاً مع سياسة النبي ﷺ الشامية، التي أولت اهتماماً كبيراً بالقبائل العربية المتنصّرة على تخوم دولته، حيث كانت في طليعتها جذام، تلك التي قطعت الطريق على الكلبي.

---

(٤٥) جمادي الأولى، الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٥٥٣، ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ١٧.

(٤٦) ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ٨٧.

(٤٧) الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٥٥٣.

(٤٨) جمادي الآخرة في السنة نفسها. ابن سعد، طبقات ج ٢ ص ٨٨. يذكر ابن حبيب أنها وقعت في السنة السابعة. المحبّر ص ١٢١.

(٤٩) الواقدي، المغازي، ج ٢ ص ٥٥٧.

(٥٠) الزهري، المغازي النبوية ص ٥٨.

(٥١) الواقدي ج ٢ ص ٥٥٧.

وكـانت الضربـة الشديـدة[٥٢] التي أنزلهـا زيد بهـذه القبيلة الكبيـرة قد حملت زعيمهـا زيد بن رفـاعة الجـذامي[٥٣]، عـلى القدوم إلى المدينة في نفر من قـومه وإجـراء ما يشبـه المعاهـدة، لتكون نواة هـذا النوع من الإتفـاقات التي سار عليها النبي ﷺ في علاقته مع القبائل المتنصرة، وكـانت آخرها مجموعـة المعاهـدات الشهيرة التي أسفرت عنها حملته إلى تبوك[٥٤].

أمـا السريـة الثالثـة، الشاميـة الملامـح التي قادهـا زيـد بن حارثة، فكانت إلى «أم قرفة» الواقعة على مسافة غـير بعيدة عن وادي القـرى[٥٥]، تلك السـريـة التي أشـارت المـرويـات إلى دوافعها الاقتصادية، حين «خرج زيد في تجـارة إلى الشام ومعـه بضائع لأصحاب النبي»[٥٦]. وقد نفذت هذه السـرية في وقت

---

(٥٢) «فـأغاروا عليهم ـ أي المسلمين ـ فقتلوا فيهم فأوجعـوا وقتلوا. . فأخـذوا من النعم ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة ومن السبي مائة من النساء والصبيان. ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ٨٨.

(٥٣) راجع احداث هـذه الروايـة مفصّلة في مغازي الـواقدي ج ٢ ص ٥٥٨ ـ ٥٥٩.

(٥٤) الطبري ج ٣ ص ١٤٦.

(٥٥) خرجت حملة في رمضان سنة ست للهجرة. ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ٩٠.

(٥٦) اعتـرض زيد في هـذه السريـة «ناساً من بني فـزارة من بني بدر فضـربـوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كـان معهـم ثم استبل زيـد وقدم عـلى رسول الله ﷺ فأخبره، فبعثه رسول الله ﷺ اليهم فكمنوا النهار وسـاروا الليل، ونذرت بهم بنو بدر ثم صحبهم زيد وأصحابه فكبـروا وأحاطـوا بالحـاضر وأخذوا أم قرفة. . » ابن سعد ج ٢ ص ٩٠.

سارت في المدينة شوطاً هاماً نحو ترتيب أوضاعها الداخلية، التي بدت محسومة بعد تطويق حركة «النفاق» واخراج اليهود، فضلاً عن انحسار الخطر القرشي وتخلي ساسة مكة عن فكرة الحرب، مرغمين على التراجع عنها إلى موقع دفاعي، حفاظاً على ما تبقى لهم من هيبة في الحجاز، ومصالح باتت تحت رحمة المدينة. وقد يصح التساؤل هنا، إذا ما كانت أهداف هذه السرية اقتصادية فقط، في وقت ربما شعر فيه النبي ﷺ بضرورة تنظيم المسألة التجارية في المدينة، بعد أن تجاوزت الأخيرة مرحلة الاعتماد على الغنائم واعتراض القوافل القرشية؟ وإذا ما كانت السرية تحمل معها قراراً بفتح خط تجاري إلى الشام، مستقل عن الخط القرشي ومنافس له؟.. ذلك أن المدينة التي كان النمط الانتاجي الغالب فيها هو الزراعة، معتمدة على أرضها البركانية الخصبة وما يتجمع في الوديان المحيطة بها من السيول[٥٧]، فضلاً عن الخبرة التي تمتع بها الأوس والخزرج (الأنصار)، وما اكتسباه من تطوير لهذه الحرفة من اليهود، حسب «ولفنسون»، الذي يرى أن هؤلاء أدخلوا «أنواعاً» جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات[٥٨]، لم تعد ـ أي المدينة ـ بعد اكتظاظها بالمهاجرين

---

(٥٧) وصفها ابن حوقل بأنها «في حرّة سبخة من الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار» كتاب صورة الأرض ص ٣٧. راجع أيضاً اليعقوبي، بلدان ص ٣١٣.

(٥٨) ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٧.

والأنصار، فضلاً عن المسلمين الوافدين عليها من بعض القبائل الحليفة أو المجاورة لها، قادرة من خلال مصادرها الانتاجية المألوفة غير المتوازنة، على مواجهة هذا الضغط البشري المتصاعد. ولقد حدث ذلك، في وقت شهد انحسار المواجهة مع قريش، وتلكؤ قوافلها في ارتياد طريق الشام غير الآمن[٥٩]، مما كان له انعكاسه السلبي على الوضع الاقتصادي في المدينة أيضاً، واقتضى التحول بالتالي، من «السرايا» إلى «الغزوات» التي كانت «مؤتة» أولاها نحو الشام.

ولا نستطيع في هذا المجال، الفصل بين مجموعة السرايا التي قام بها زيد قبل مؤتة والتي كانت آخرها، تلك التي اتخذت سمة تجارية، وبين السرية التي ربما حملت السمة نفسها، وخرجت قبلها بنحو شهر في هذا الاتجاه، وهي سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل[٦٠]. والواقع أن المرويات لم تشر بوضوح إلى أية خلفية، تؤكد هذا الافتراض أو تنفيه، سوى ما يمكن استنتاجه من خلال انتداب عبد الرحمن بن عوف لقيادتها، وما عرف عن الأخير من موقع بارز في هذا الميدان، وما اشتهر به من «الدهاء في التجارة والمال بين المسلمين»، حسب المستشرق «وات»[٦١]. ولكن ثمة رواية

---

(٥٩) إبراهيم بيضون، الحجاز والدولة الإسلامية ص ١١٣.

(٦٠) شعبان سنة ست للهجرة. الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٥٦٠. ابن سيد الناس ج ٢ ص ١٠٨.

(٦١) محمد في المدينة ص ٦٦

أوردها «ابن سيد الناس» تشير إلى أن خطراً كان يواجه المسلمين من جانب دومة وأن «جمعاً كثيراً يظلمون من مرّ بهم وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة»[٦٢]. ويبدو من سياق الروايات، أن هذه السرية، احتلت حيزاً هاماً في سياسة النبي ﷺ الشامية، حيث أدرجها، «ابن عساكر» ـ في روايته المقتبسة عن الواقدي ـ بين المغازي، واعتبرها «أول غزوات الشام»[٦٣]، وذلك خلافاً للأخير الذي صنفها في إطار المجموعة الأولى من الأعمال العسكرية للنبي ﷺ. وقد يكون هذا المؤرخ على شيء من الحقيقة في هذا التقويم لسرية «دومة الجندل»، بعد أن رأى فيها ملامح جديدة للسياسة التوسعية في الاتجاه الشامي، سواء في تحديد الهدف الذي انتهت إليه، وهو إحدى الأسواق البارزة في العهد القرشي[٦٤] أم في المضمون الذي أخذت تتسم به حركة الفتوح الأولى فيما بعد، متمثلاً ذلك في وصية النبي ﷺ لابن عوف عشية خروجه من المدينة[٦٥]، أم في النتائج الهامة التي حققتها السرية، من دون أن تجد نفسها مضطرة لاستخدام العنف، حيث اتخذت فرادة ما في هذا المجال، بالمقارنة مع السرايا السابقة، بعد أن نجح ابن عوف في اقناع الأصْبَع بن عمرو

(٦٢) عيون الأثر ج ٢ ص ٥٤.

(٦٣) تاريخ دمشق الكبير، المجلد الأول ص ٣٨٥.

(٦٤) اليعقوبي، تاريخ ج ١ ص ٢٧٠. جواد عليّ المفصّل ج ٧ ص ٣٧١.

(٦٥) «أغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله، لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليداً» المغازي ج ٢ ص ٥٦١، ابن سعد الطبقات ج ٢ ص ٨٩.

الكلبي «ومعه ناس كثير»[٦٦] بالإسلام. وقد وصف الأخير في السياق بأنه «كان نصرانياً وكان رأسهم»[٦٧]، مما يعني - إذا صحت الرواية - خضوع دومة لسلطة المدينة في ذلك الوقت المبكر أو أنها اقامت معها ما يشبه المعاهدة، تلك التي نلحظها عبر دلالات أخرى، مثل «إعطاء الجزية» و «زواج» ابن عوف من ابنة الزعيم الكلبي[٦٨]، الذي سبقت الإشارة إليه.

لقد ناقشنا فيما سلف، سرايا العام السادس من الهجرة التي كان لها بعد توسعي واضح باتجاه الشام، وهي من هذا المنظور تعتبر مقدمة لغزوة مؤتة التي نحن بصددها في هذه الدراسة وكانت تلك السرايا، تتسع حلقاتها، مع تعزيز الوضع الداخلي في المدينة وانحسام الصراع ضد الوثنية في مكة، الذي بدأ يتكرس منذ العام الهجري الخامس. وإذا كانت هذه المقدمات «التوسعية» قد جاءت محصلة لفشل «غزوة الأحزاب» القرشية، فإن ثمة مقدمة أخرى لا تقل أهمية عن سابقاتها، كانت من محصلات غزوة الحديبية التي قلبت موازين الصراع في الحجاز لمصلحة الإسلام، بعد انتقاله من موقع الدفاع إلى الهجوم، وهي سرية «ذات اطلاح» في العام الثامن للهجرة[٦٩]، التي وُصفت بأنها من «أرض

(٦٦) الواقدي، ج ٢، ص ٥٦١، ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ٨٩. ابن عساكر، المجلد الأول ص ٣٨٧.

(٦٧) المكان نفسه في المصادر السابقة.

(٦٨) المكان نفسه في المصادر السابقة.

(٦٩) ابن سعد الطبقات ج ٢ ص ١٢٧.

الشـام»[٧٠] وكان ينـزل بها قـوم من قُضاعـة[٧١]، وذلك بقيادة كعب بن عمير الغِفاري[٧٢]. وتأتي أهمية هذه السرية بأنها أول عمل عسكري إلى المنطقة الشامية، منذ غزوة الحـديبية وعمـرة القضـاء (القصاص)[٧٣]، حيث انهمك النبي ﷺ حينذاك بحسم الـوضع نهائيـاً في الحجاز، لا سيـما القضاء عـلى أكبـر الجيـوب اليهـودية في خيـبر[٧٤]، ذلك الحصن الشهـير الـذي يقـع عـلى مسافة غير بعيدة عن المدينة عـلى طريق الشـام[٧٥]. ولكن ثمة غموضاً يحيط بهذه السرية، التي يبدو أنها لم تكن أكـثر من حملة استـطلاعية، كـان الهـدف منهـا، التمهيـد لغـزوة مؤتـة، التي خـرجت من المـدينـة بعـد وقت قصـير من هـذه السـريـة الصغيرة[٧٦].

وهكذا، تتخذ السرايا المُدرجة زمنياً ما بين العامين السادس والثامن للهجرة، الحيِّز الأهم في سياسة النبي ﷺ الخارجية وتشكل

---

(٧٠) الـواقـدي ج ٢، ص ٧٥٢. وصفهـا محمـد كـرد عـلي بـأنها وراء وادي القرى بين تبوك وأذرعات، خطط الشام ج ١، ص ١٠٨.

(٧١) ابن الأثير، الكامل ج ٢ ص ٢٣٠.

(٧٢) المكان نفسه.

(٧٣) ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول، ص ١٧٠.

(٧٤) تم غزوها في أعقاب الحديبية، الزهري، المغازي النبوية، ص ٨٤.

(٧٥) وصف ياقوت خيبر بأنه ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريـد الشام، معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٩.

(٧٦) تشكلت من خمسة عشر رجلاً، يبـدو أنهم قتلوا جميعاً بـاستثناء واحـد عاد جريحاً إلى المدينة. راجع الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٧٥٣ ـ ٧٥٤.

العنصر الأبرز في التحرك إلى إقامة مراكز نفوذ للإسلام على الأطراف الشامية، حيث كان القادة على معرفة وثيقة بالمنطقة (زيد بن حارثة ـ كعب بن عمير الغفاري)، أو لهم صفة تجارية وعلائقية مع قبائل التخوم (عبد الرحمن بن عوف). وإذا أضفنا إلى ذلك، حرص النبي ﷺ الذي تجلى مع الهجرة، على إبقاء طريق الشام مفتوحاً أمام القوافل، على الرغم من السرايا المحلية التي بثّها لعرقلة تجارة قريش، لأدركنا بوضوح أكثر، البعد السياسي لهذه «السرايا الشامية». ومن ناحية أخرى فإن ثمة بعداً قبلياً، تكامل مع الأول، تمثّل في التوجّه الاستقطابي نحو القبائل المتنصرة على تخوم الحجاز، لا سيما جذام وكلب، متقاطعاً ذلك عبر اثنين من الدوافع: أحدهما، انطلق من حضور قوى لهاتين القبيلتين ربما وجد فيه النبي ﷺ مدخلاً إلى الشام، في وقت فترت فيه العلاقة المصلحية أو كادت بين قبائل الأخيرة لا سيما التخومية منها، وبين الدولة البيزنطية، الساعية حينذاك إلى تقوية نفوذها المركزي في المنطقة بعيد انتصارها على الفرس، والثاني، يعتبر محصلة السياسة التي ظهرت ملامحها التنظيرية في «سورة الروم» خلال العهد المكي من الإسلام، وتبلورت على أرض الواقع بعد الهجرة، دون تجاهل ما يقتضيه الفارق بين الحالتين، حيث كانت ترمي إلى «استعادة» القبائل العربية المتنصّرة ـ إذا جاز التعبير ـ من التبعية البيزنطية وإلى ضرب التعايش المصطنع وغير المتكافىء بين العرب والبيزنطيين في الشام، من خلال مجموعة الثغرات التي سبقت الإشارة إليها.

ولعل الأمور باتت أكثر وضوحاً في أعقاب «الحديبية» وما أسفرت عنه من اتفاق مع قريش، كان له انعكاسه المباشر على حرية الحركة للإسلام والمسلمين في أطراف شبه الجزيرة لا سيما الشامية منها. فلم تعد ثمة ضرورة بعد ذلك، لأن يحشد النبي ﷺ قواته في حصار قريش أو عرقلة تحركاتها، مما دفعه إلى توجيه هذه الطاقة أو معظمها نحو أهداف أخرى. وفي المقابل لم تعد الدولة البيزنطية، 'ليف المناسب، بعد أن اسقطت المتغيرات مسوّغ استمراره من الناحية النظرية على الأقل. فقد عاد البيزنطيون إلى الشام، ولكن غير أقوياء كما كانوا في السابق، كما عادت قوافل قريش تأخذ طريقها تحت رعايتهم إلى أسواق الأخيرة، متراجعة معها الأزمة التي سادت العلاقة بين مكة والقسطنطينية، إبّان الحرب مع الفرس. وفي ضوء هذا التحوّل، فإن حرية الحركة، وما ظهر خلالها من اهتمام خاص بأطراف شبه الجزيرة من ناحية الشام، أدّت إلى اختراق هذه المنطقة والدخول إلى معاقل قبلية شهيرة، قبل أن تشكّل «مؤتة» ذروة هذه «السياسة الشامية» في ذلك الوقت.

الحملة... الطريق إلى الشام

كان هذا التحرك، يشكل ضرورة سياسية وعسكرية، فرضتها التطورات التي كانت دولة النبي ﷺ في الحجاز محورها الأساسي، بعد تجميد الصراع مؤقتاً مع قريش، كما كانت محورها من جهة ثانية الدولة البيزنطية، التي حاولت استثمار انتصارها على الفرس، بتقوية نفوذها الذي اختلّ في بعض

الجهات، لا سيما المتاخمة لمنطقة نفوذ القوة الإسلامية الصاعدة . وقد تكون هذه «العودة» البيزنطية، سبباً في حالة التوتر التي سادت التخوم، حيث أسهمت على ما يبدو في تعزيز الوضع المعنوي للقبائل المتنصّرة، على الرغم من مخالفة بعضها مذهبياً لكنيسة الدولة الرسمية، بقدر ما أسهمت في ظهور حالة الوعي المستجد لدى هذه القبائل أو بعضها إزاء الإسلام، واجدة فيه من التحدّي ـ من الناحية العقائدية على الأقل ـ ما يفوق التحدي البيزنطي المألوف(٧٧) .

ومن هذا المنظور تكتسب غزوات الشمال تلك الأهمية، في مواجهة التحدي الذي فرضته اعادة ترتيب مواقع النفوذ البيزنطي في الأطراف الشامية، لا سيما سرية «دومة الجندل»، التي يرى فيها أحد المؤرخين «أول حلقة في سلسلة الصراع الحربي بين عالمي الإسلام والنصرانية»(٧٨)، وذلك انطلاقاً مما حققته من منجزات على صعد شتى، دينية وسياسية واجتماعية. ومما يلاحظ أن هذا التحرك الإسلامي لم يأخذ مداه الفعلي، إلا بعد الفشل، إن لم نقل اليأس في تحقيق تحالف أو اتفاق أكثر شمولية، مع القبائل المتنصّرة في العامين السادس والسابع، حيث سبقتها أعوام المجابهة مع اليهود في الحجاز، وما أعلنوه من عداء صريح للإسلام. وكان من

---

(٧٧) عماد الدين خليل، دراسة في السيرة ص ٢٨٥ .

(٧٨) راجع ما أورده ابن سيد الناس عن تربّص دومة الجندل بالمسلمين وما قيل عن تهديدها للمدينة. عيون الأثر ج ٢ ص ٥٤ .

البداهة، أن القضاء على «خيبر»، افترض موقفاً من المستقرات المسيحية الصغيرة على الأطراف، ولكن مع اتجاه إلى التعامل معها، وفق مقتضيات النصوص القرآنية في هذا المجال. على أن هذه العلاقة، كانت محكومة بالواقع، ومتأثرة بتغيّر موازين القوى في الصراع البيزنطي - الفارسي ومحاولة اختراق «الحاجز» الذي لم تعد له منعته السابقة، كما أثبتت السرايا الآنفة الذكر، لا سيما «دومة الجندل» و «حسمى» و «ذات أطلاح»، التي انطلقت بصورة غير عفوية في هذا الاتجاه الشامي، وكانت مقدمة مباشرة لغزوة «مؤتة» ومرتبطة بها إلى حدّ كبير.

وهكذا فإن غزوة مؤتة، تصبح خارج الالتباس أو التسطّح التاريخي الذي اتّسمت به حتى الآن، سواء في المرويات التقليدية أم في الكتابات الحديثة والمعاصرة. ولعل ابن الأثير، كان على استيعاب تقويمي خاص بها، عندما أدرج أحداثها في غير موقعها الزمني، مسوّغاً ذلك بقوله: «كان ينبغي أن نقدم هذه الغزوة على ما تقدم، وإنما أخرّناها لتتصل الغزوات العظيمة فيتلو بعضها بعضاً»[٧٩]. على أن تفاصيل الحادثة لدى هذا المؤرخ، لا تختلف عن تلك التي وردت في تاريخ الطبري وكتب المغازي والسير، وهي لا تبحث مطلقاً في الأسباب الموضوعية، إلا ما ذكرته المرويات عن مقتل موفد النبي ﷺ[٨٠]

---

(٧٩) الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤.

(٨٠) الحارث بن عمير الأزدي. الواقدي، المغازي ج ٢، ص ٧٥٥.

إلى «ملك» بصرى[٨١]، على يد حليف له[٨٢]، في المكان الذي ذاعت شهرته بعد ذلك، دون معرفة ما يمثله الأخير بالنسبة لمؤتة إذا كان أميراً عليها، أو أن «القرية»[٨٣]، كانت مجرد مكان اختاره «الحليف» للإيقاع بالحملة والقضاء عليها، بتدبير من «ملك» بصرى أو آخرين من أتباع الدولة البيزنطية.

ولا بدّ هنا من العودة إلى السياق التاريخي، وما قيل عن كتاب أرسله النبي ﷺ إلى هرقل (الامبراطور البيزنطي)، الذي كان لا يزال حينذاك في الشام بعيد انتصاره على الفرس. ويبدو أن حامل الكتاب[٨٤]، كان قبل اسلامه يدين بالمسيحية، من خلال انتمائه إلى كبريات القبائل الشامية المتنصّرة (كلب) وهو ما كان النبي ﷺ حريصاً على اتباعه، عندما اتخذ أعواناً ورسلاً وقادة، على علاقة وثيقة بالأماكن التي يوفدون إليها، ويحملون معهم مهمات دقيقة (دحية الكلبي، الحارث بن عمير الأزدي...)، على أن الرواية لا توضح، إذا كان كتاب النبي ﷺ إلى هرقل، هو نفسه الذي تلقاه «ملك» بصرى - حيث أشار «الزهري» إلى أن الموفد «دفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل»[٨٥] - أم أن كتاباً خاصاً حمله إلى صاحب بصرى

---

(٨١) لم تشر الرواية إلى اسمه. راجع الواقدي، ج ٢، ص ٧٥٥، ابن سعد، غزوات الرسول وسراياه ص ١٢٨.

(٨٢) شرحبيل بن عمرو الغساني، الواقدي، ج ٢، ص ٧٥٥.

(٨٣) الطبري، ج ٣، ص ١٠٨.

(٨٤) دحيّة الكلبي، الزهري، المغازي النبوية، ص ٥٨.

(٨٥) المكان نفسه.

(ملكها)، وكان سبباً فيما جرى بعد ذلك في مؤتة. ذلك أن اسم الأخير لم يرد بين الذين تلقوا كتباً من النبي ﷺ، إلا إذا كان أحد الأسماء الواردة في الرواية التي أشارت إلى «مكاتبة» النبي ﷺ للملوك والأمراء، من دون ذكر صفة معينة لها[٨٦].

على أن مروية «الكتب النبوية»، ليست واضحة تماماً، وتحتاج إلى نقاش لسنا في سبيله الآن، ولكن يمكننا التوقف قليلاً عند رسالة النبي ﷺ «إلى هرقل، سواء كانت نفسها التي تلقاها صاحب بصرى، أم أنها وصلت إليه عبر الأخير، حيث الروايات لا سيما المنسوبة للزهري[٨٧]، ترى فيها مجرد دعوة عفوية إلى الإسلام، دون مراعاة التطورات الخطيرة التي كانت لها سمات سياسية[٨٨] واضحة، إلى جانب سماتها الدينية المبدئية. ذلك أن هرقل، العسكري المحترف[٨٩]، الذي خاض الحرب مع الفرس تحت الشعار الصليبي وتصدى بقوة للمدّ العربي الإسلامي بعد ذلك، لم يكن مطلقاً في موقع المحاور أو قريباً منه[٩٠]، وقد خرج لتوّه من انتصار باهر،

(٨٦) مثل الحارث بن أبي شمر الغساني وهوذه بن علي الحنفي. البلاذري، أنساب الأشراف، ج ١، ص ٥٣١ (تحقيق حميد الله). ابن الأثير، الكامل ج ٢، ص ٢١٠.

(٨٧) المغازي النبوية ص ٦٠ ـ ٦١.

(٨٨) وت، محمد في المدينة، ص ٦٣.

(٨٩) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٢١.

(٩٠) راجع تفاصيل اللقاء الذي قيل أنه جرى بين هرقل وأبي سفيان في بصرى، بعد استدعاء الأول للأخير للوقوف منه على أخبار النبي ودعوته. الزهري، المغازي النبوية، ص ٥٩ ـ ٦٠.

انصرف حينذاك إلى توظيفه في دعم نفوذ السياسي - الامبراطوري. وإذا كان غير مطروح، التشكيك بصحة هذه الرسائل التي قيل أنها أُرسلت إلى هرقل وإلى آخرين من الملوك والأمراء، فإن تناولها على النحو الذي أوردته الروايات، في معزل كَلّي أو جزئي عن متغيرات المرحلة، لا يعبّر كثيراً عن واقع الحال في ذلك الوقت. فثمة حقيقة لا نستطيع إغفالها في هذا السياق، هي أن النبي ﷺ، إذا كان قد تجاوز مقاييسه السابقة التي كان حريصاً من خلالها على الموازنة بين الفرس والبيزنطيين، مع ميل لهؤلاء، فإنه بعد أن حسم أو كاد، الصراع مع قريش، بدأ يتجه لإثبات الإسلام السياسي والديني وتجذيره في منطقة النفوذ البيزنطي، مما أدى إلى وضع أحدهما في مواجهة الآخر حيث اعتبر النبي ﷺ التحرك المجاور، تحدّياً له وتجاوزاً للخط المسموح به لدى الدولة الإسلامية الصاعدة، التي تعتبر هذه المنطقة امتداداً جغرافياً وبشرياً لها. ومن هذا المنظور فإن التحدي البيزنطي والمواجهة الإسلامية، أسهما في خلق جو تصادمي بين الطرفين، وفي تهيئة الظروف لغزوة مؤتة، في وقت كان النبي ﷺ يعمل على كسر هذا التوازن، الذي اختلّ على يد البيزنطيين أنفسهم، بعد ما قيل عن حشود ضخمة لهؤلاء واتباعهم من القبائل المتنصّرة، أخذت تتجمّع في نواحي البلقاء.

ومن ناحية أخرى، فإن ثمة التباساً في التوقيت بالنسبة لهذه

الحملة، حيث يشير ابن إسحاق[٩١] إلى أن الإعداد لمؤتة تم في أعقاب غزوة خيبر، انطلاقاً من علاقة ما ربطت بين الغزوتين ضمن تحرك سياسي - ديني، موحد ومتواصل، في حين يجد عروة بن الزبير أن الحملة نُفذت في أعقاب عودة النبي ﷺ من «عمرة القضاء»[٩٢] إلى المدينة. على أن كلتا الروايتين، تلتقيان عند نقطة هامة، وهي أن اختيار اللحظة لهذا التحرك، كان معبّراً عن موقع النبي ﷺ القوي، سواء في هذه أو تلك، أي بعد اجتثاث جذور اليهود في الرواية الأولى، وتحقيق انتصاره السياسي الباهر على قريش في الثانية، مما يعني أن تلك الحملة لم تكن عفوية أو مدفوعة بالموقف الثأري، بقدر ما كانت متصلة بهذه المنجزات السياسية الهامة، ومسبوقة بفترة من التأمل والاعداد الهادىء لها، بلغت نحواً من ستة أشهر[٩٣]، كانت كافية لاتخاذ النبي ﷺ قراره الخطير، باختراق «حاجز» القبائل العربية المتنصّرة في جنوب الشام، إلى حيث القوات البيزنطية النظامية، مما سيكون له تأثيره الجذري - وعلى المدى القريب جداً - بالنسبة لكافة الأطراف المتصارعة في المنطقة.

---

(٩١) الطبري، ج ٣، ص ١٠٧.

(٩٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير، المجلد الأول، ص ٣٨٨، الكلاعي، الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ج ٢، ص ٢٧٥، ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول، ص ١٧٠.

(٩٣) ابن هشام، السيرة النبوية القسم الثاني، ص ٣٧٣، الكلاعي، الاكتفاء، ج ٢، ص ٢٧٥.

والواقع أن تفاصيل هذه الغزوة تبدو لنا مكررة وعلى شيء من الإيجاز في المصنفات التاريخية بما في ذلك تاريخ الطبري، الذي يميل عادة إلى التفصيل والإسهاب في ملاحقة الحدث، حيث جاءت معلوماته مقتضبة[٩٤]، على الرغم من اعتماده على ابن إسحاق كمصدر رئيسي لهذه الحادثة[٩٥]، بينما الواقدي، كان الأكثر دقة في مادته المسهبة عن مؤتة مما جعل «مغازيه» المصدر الرئيسي لهذه الدراسة.

وفي مقدمة ما يستوقفنا في رواية «الواقدي»[٩٦]، أن ثمة تأهباً ربما بلغ حدود الاستنفار، كان يسود المنطقة الشامية إبّان خروج الحملة من المدينة[٩٧]، التي يبدو أنها لم تفاجىء البيزنطيين وحلفاءهم، حيث كانوا راصدين التحركات الإسلامية في هذا الاتجاه، وواجدين فيها ما يتعدى العمليات «البدوية» المألوفة. ولعل هذا الموقف الحذر، أخذ يتبلور في أعقاب رسالة النبي ﷺ إلى هرقل ودعوته إلى الإسلام، حيث أظهرت الرواية التاريخية شرحبيل بن عمرو الذي اعترض

---

(٩٤) الطبري، ج ٣ ص ١٠٧ - ١٠٩.

(٩٥) ابن هشام القسم الثاني ص ٣٧٣ وما بعدها، الأصفهاني، مقاتل الطالبيين، ص ٧.

(٩٦) المغازي ج ٢ ص ٧٥٥.

(٩٧) خرجت الحملة في جمادي الأولى سنة ثمان، وكان قوامها ثلاثة آلاف رجل بقيادة زيد بن حارثة ومعه اثنان من كبار الصحابة هما: عبد الله بن رواحة وجعفر بن أبي طالب، فضلاً عن القائد الشهير خالد بن الوليد.
راجع ابن هشام القسم الثاني ص ٣٧٣ والطبري ج ٣ ص ١٠٧.

طريق موفد النبي ﷺ (الحارث بن عمير) أنه على احتكاك بالأحداث وعلم بالتفاصيل منها. وقد يعزز ذلك الاعتقاد بأن ما جرى لم يكن عملاً فردياً أو قبلياً بقدر ما كانت له خلفيته السياسية، التي تجلت خاصة في حوار الرجلين اللذين ينتميان إلى الأرومة الأزدية الواحدة[٩٨].

وإذا كان النبي ﷺ قد تأثر لمقتل رسوله، فإنه وجد في ذلك مناسبة لاتخاذ مبادرة سريعة في التحرك الجدّي نحو الشام، موظفاً الصدى الذي تركته الحادثة على أصحابه في المدينة، من أجل تعبئتهم نفسياً وسياسياً، حيث يتوافق ذلك والرواية التاريخية، التي أشارت إلى أن النبي ﷺ لما بلغه «الخبر اشتد عليه، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ومن قتله، فأسرع الناس وخرجوا فعسكروا بالجرف»[٩٩]، فقد كان النبي ﷺ ـ حسب النص السالف ـ على إدراك بتفاصيل الوضع الشامي، دون أن يكون مدفوعاً فقط بالعامل الشخصي، حيث كانت له حساباته الأوسع، في التعاطي الجديد مع العدو الحقيقي في الشام، الذي لم يعد خافياً على المسلمين في ذلك الوقت.

وثمة مؤشر آخر في هذا السياق التاريخي لغزوة مؤتة، أن

---

(٩٨) راجع رواية الواقدي. . «فلما نزل مؤتة أي الحارث ـ عرض له شرحبيل ابن عمرو الغساني فقال له: «أين تريد؟ قال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، أنا رسول رسول الله، فأمر به فأوثق رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه». المغازي ج ٢، ص ٧٥٥.

(٩٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٥٦.

النبي ﷺ بعد حالة الاستنفار والدعوة إلى التجمع في معسكر الجرف[١٠٠]، تلك الدعوة التي أسفرت عن تشكيل الحملة إلى حيث قتل رسوله، أعلن أو كاد بدء حركة الفتوح، التي تأخر تنفيذها الفعلي حتى عهد الخليفة الأول، وذلك من خلال التشريع الهام، الموجه إلى قادته، والمعبر عن الأجواء المشحونة التي بدأت تكتنف أطراف الشام في ذلك الحين[١٠١]. والواقع أن قراءة متمعنة في النصوص لا تترك مجالاً للشك بهذه المجابهة الساخنة بين الإسلام وبين البيزنطيين وحلفائهم، معبرة عنها وصية النبي ﷺ لقواته، وقد سار معهم شوطاً خارج المدينة «أغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام . . .»[١٠٢]. وفي المقابل كان التأهب على أتمه للقاء المسلمين، بعد أن تناهت إلى

---

(١٠٠) يقع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام، ياقوت، معجم البلدان ج ٢، ص ١٢٨.

(١٠١) راجع وصية النبي: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث: فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم: ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فاخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجرى عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيء ولا في القسمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. .» الواقدي المغازي ج ٢ ص ٧٥٧.

(١٠٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٨.

الدولة البيزنطية أخبار تحركهم من المدينة والهالة[١٠٣] التي أحاطت بهم.

ومن اللافت، أن يتردد مرة أخرى اسم شرحبيل بن عمرو، ولكن بشيء من التواتر - حيث يشير اليه ابن سعد تحديداً، بأنه «جمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه»[١٠٤]، بينما يذكره الواقدي مجتزأ بقوله «وقام فيهم رجل من الأزد يقال له شرحبيل بالناس وقدم الطلائع أمامه»[١٠٥]، أما ابن عساكر فقد أورد اسماً آخر هو «ابن أبي سمرة الغساني»[١٠٦]، كقائد لطلائع الجيش الذي تصدى «لأهل مؤتة»[١٠٧]. ولعل ما يعنينا في هذا المجال، أن يكون القائد نفسه، أو من العشيرة نفسها (غسان) من تصدى للمسلمين وهم لا يزالون في وادي القرى، حين أرسل أخاه (سدوس)، فضلاً عن أخ ثان (وبر)[١٠٨]، في محاولة ربما ترمي إلى عرقلة سير الحملة واتاحة فرص أفضل للخطة المعادية، التي كان شرحبيل على ما يبدو رأس الحربة فيها. ولا يكتفي هذا النص بالإشارة إلى قائد الطلائع الأمامية، بل ينطوي في الوقت نفسه على تحديد نوعية العلاقة، التي بلغت حداً كبيراً من التدهور، بين المسلمين

(١٠٣) ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ١٢٨.
(١٠٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٢٩.
(١٠٥) المغازي ج ٢ ص ٧٦٠.
(١٠٦) تاريخ دمشق، المجلد الأول ص ٣٩٢.
(١٠٧) الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٧٥٨.
(١٠٨) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٦٠.

والقوى المسيطرة في الشام، حيث ترددت عبارة «العدو» في مختلف الروايات (سمع العدو[١٠٩]، دنا العدو[١١٠].. كثرة هذا العدو[١١١].. الخ..) وذلك في معرض الإشارة إلى البيزنطيين وحلفائهم، مكرّساً عداوتهم لله وللمسلمين في وصيته الآنفة الذكر[١١٢].

وهكذا يتبين لنا، من خلال الموقف المضاد للبيزنطيين والقبائل المتنصرة، والسرعة التي تحركت فيها قواتهم لمواجهة الحملة الإسلامية، إن هؤلاء كانوا على معرفة واسعة بتطورات الوضع السياسي في الحجاز، ومدركين خطورة الأهداف البعيدة، لمثل هذا التوغل في عمق المنطقة الشامية. ولذلك لم تكد الحملة تبلغ «أرض معان»[١١٣]، حتى تناهت اليها أخبار نزول الامبراطور البيزنطي في «مآب»[١١٤]، أي في المنطقة نفسها التي بدت حينذاك محور الصراع الإسلامي - البيزنطي،

---

(١٠٩) الواقدي، المغازي ج ٢ص ٧٦٠ ابن سعد الطبقات، ج ٢، ص ١٢٨

(١١٠) ابن هشام، السيرة النبوية القسم الثاني، ص ٣٧٧، الكلاعي، الاكتفاء ج ٢ ص ٢٧٩.

(١١١) ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول. ص ١٧٢.

(١١٢) الواقدي ج ٢، ٥٥٨.

(١١٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٥٦٠.

(١١٤) ذكر ياقوت أنها مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء. معجم البلدان ج ٨ ص ٣١. كما ذكر أبو الفداء أنها «مدينة قديمة أولية قد بادت وصارت قرية تسمى الرّبة وهي من معاملة الكرك» ص ٣٤٧، ولكن BUHL يعتقد أنها كانت معسكراً (فسطاطا) في ذلك الوقت Encyclopédie de l'Islam T. III. P. 826.

منذ مقتل الحارث بن عمير حتى حملة تبوك بقيادة النبي ﷺ. ولن نتوقف كثيراً عند العدد[115] الهائل من المقاتلين، الذي قيل إن هرقل حشده لمواجهة المسلمين، حيث الأرقام غالباً ما تكون غير دقيقة وتجنح إلى المبالغة، لا سيما الرقم المرتفع الوارد في تقدير القوة البيزنطية، دون ثمة ما يسوغه كثيراً، أمام الرقم المتواضع لقوة المسلمين، فضلاً عن صعوبة اعداده والتحرك به على هذا النحو من السرعة، كما جرى في ذلك الوقت.

على أن وضوح المبالغة في وصف القوات «المعادية»، لا يلغي عنصر التفوق غير العادي للقوات البيزنطية وحلفائها، وذلك بالمقارنة مع القوة الإسلامية الصغيرة، التي داهمها ذلك العدد المرتفع وكاد أن يدفعها إلى التردد في القتال[116]، لولا الموقف التحريضي لابن رواحة (أحد قادة الحملة) الذي كان له تأثيره في رفع المعنويات والتخفيف من هالة التفوق البيزنطي، مشدّداً على أخذ العبرة من «بدر»[117] التي كانت

---

(١١٥) تجمع الروايات على أن هرقل قد جاء في «مائة ألف من الروم وانضمت إليه المستعربية من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلّي في مائة ألف» الطبري ج ٣ ص ١٠٧. راجع أيضاً: ابن هشام، القسم الثاني ص ٣٧٥. ولكن الواقدي يكتفي بذكر الرقم الأول، أي مائة ألف، المغازي ج ٢ ص ٧٦٠.

(١١٦) الواقدي، ج ٢ ص ٧٦٠.

(١١٧) راجع النص: «والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيول، إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان. . . إما ظهور عليهم فذلك ما=

النموذج الأرقى للقتال من أجل القضية، وتحقيق انتصار الإيمان على الشرك[١١٨]. ومن هذا المنطلق، فإن حملة مؤتة تتجه إلى الشام، وهي منطوية على هذا الشعور بحتمية انتصار القضية، دون أن يعني ذلك اختيار التضحية مسبقاً والسعي إليها[١١٩] ولعل عدد القتلى لا يعبر كثيراً عن ذلك، حيث المرويات لم تشر إلى ما يزيد عن عشرة[١٢٠]، سقطوا في المعركة التي جرت في «مؤتة» اضافة إلى القادة الثلاثة، دون أن تضيف تفاصيل أخرى تتعلق بسير القتال وظروفه باستثناء ما ذكرته عن خالد بن الوليد، الذي كان حديث العهد بالإسلام، وأخذه الراية بعد الفراغ القيادي في الحملة[١٢١]، في وقت «اختلط فيه المسلمون والمشركون»[١٢٢] حسب رواية الواقدي، مما أدى إلى اتخاذه ذلك الدور الانقاذي، بعد أن «حاشى بهم[١٢٣]»، ثم انحاز

وعدنا الله به ووعدنا نبينا، وليس لوعده خلف، وإما الشهادة فنلحق بالاخوان نرافقهم إلى الجنان» الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٧٦٠.
راجع أيضاً: ابن هشام، القسم الثاني ص ٢٧٥.

(١١٨) الواقدي، المغازي ج ٢، ص ٧٦٢.

(١١٩) المصدر نفسه ج ٢ ص ٧٦٠.

(١٢٠) ابن كثير، الفصول في اختصار سيرة الرسول ص ١٧٣. راجع أيضاً: الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٧٦٩. الطبري ج ٣ - ص ١٠٩.

(١٢١) ابن سعد، الطبقات ج ٢ ص ١٢٩.

(١٢٢) الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٧٦٣.

(١٢٣) من الحشي، أي الناحية، وقد وردت «إنحاش المسلمون» لدى الواقدي، ج ٢ ص ٧٦٣. وردت خاشى بهم لدى الكلاعي، أي حجز بينهم وبين الروم. الاكتفاء ج ٢، ص ٢٨٠.

وانحيــز عنــه حتى انصــرف الناس»[١٢٤]، حسب روايــة ابن اسحاق.

كان هذا ما توقفت عنده المرويـات التي وصفت الهزيمـة بأنها الأكثر سوءاً في تاريخ المسلمين[١٢٥]، مما أدى إلى استنكار شديـد في المدينة واتهـام «أهل مؤتـة» بالتقصـير والتخاذل[١٢٦]. ولكن النبي ﷺ واجه النقمة التي أحاطت بهم، وبـدد الشكـوك بقـدرة «أهل الإيمان» على قوى الشرك، الذين لم يستطيعوا على كثرتهم أن يزرعوا الخوف في قلوب القلة المؤمنة، أو يدفعوا إلى التراجع قيادتها، التي مثلت في سعيها الطوعي إلى الشهادة، نموذجاً آخر في التضحية من أجل المبدأ، ورافداً جديداً لتـراث المسلمين في هـذا المجال، مؤدياً ذلك إلى تكـوين مقاتـل نوعي، شكّـل أداة التغيير الفاعلة في التـطورات الجذريـة، الممتدة مـا بين «مؤتـة» ومعارك الفتوح الكبـرى في العهد الـراشدي الأول. ومن هـذا المنظور، حرص النبي ﷺ على حماية معنويات العائدين من مؤتة ـ إذا جاز التعبير ـ وصدّ الاتهام عنهم، بل كان أكـثر حرصـاً على تحويل هزيمتهم إلى نصر، ووصفهم بالكرّار في معرض الرد على اتهامهم بالفرّار[١٢٧]. ولقد ترافق هذا الموقف مع حملة اعلامية قادها شعراء المدينـة دفاعـاً عن «أهل مؤتـة» وفي الطليعـة منهم

---

(١٢٤) ابن هشام، القسم الثاني، ص ٣٨٠.

(١٢٥) الواقدي، المغـازي ج ٢ ص ٧٦٢.

(١٢٩) المصدر نفســه ج ٢ ص ٧٦٥.

(١٢٧) المكان نفسه.

حسان بن ثابت، حيث حفظت لنا المصادر ثلاثاً من قصائده، في تمجيد قادتهم والآخرين الذين سقطوا في المعركة، فضلاً عن قصيدة لكعب بن مالك أخذت المنحى نفسه وأخرى لشاعر مجهول[١٢٨]، اسهمت بدورها في تغيير الصورة القاتمة بعيد انكفاء الحملة «مهزومة» إلى المدينة.

وإذا كنا لا نملك معطيات أخرى لتقويم هذه التجربة الرائدة في غير الموقع الملحوظ في السياق التاريخي، فإن الهزيمة - إن صح وقوعها - مبهمة حتى في حملة الشعراء الآنفة الذكر. ولعل أبرز المفارقات فيها، مقتل قياداتها تباعاً، على نحو لا يتوافق مع ضآلة عدد الجنود الذين سقطوا في المعركة، مؤدياً ذلك إلى عودة الحملة شبه كاملة إلى المدينة. ولقد وُجد من المؤرخين من شكك بهذه الهزيمة، أو حتى بالمعركة نفسها، كابن «سيد الناس» الذي أورد رواية لابن اسحاق، تحدثت عن «انحياز كل فئة عن الأخرى من غير هزيمة»[١٢٩]. وثمة ملحوظة أخرى مرتبطة بأرضية المعركة وتوقيتها في آن، وبالتالي فإن تساؤلاً يفرض نفسه إذا ما كانت حملة المسلمين إلى «مؤتة» فعلاً اختيارياً في حينه من النبي ﷺ، أم أنها ردة فعل على خطر ما، أخذ يلوح في المنطقة المتاخمة لدولته، في وقت كان البيزنطيون مهتمين باعادة ترتيب أوضاعهم فيها، كما أسلفنا القول. ولعل الجواب على هذا التساؤل قد لا يكون ممكناً دون

---

(١٢٨) ابن هشام، القسم الثاني ص ٣٨٤ - ٣٨٨.
(١٢٩) عيون الأثر ج ٢ ص ١٥٥.

استيعاب هذه التطورات، وانعكاسها السلبي على العلاقة بين النبي ﷺ والبيزنطيين، حيث وجد هؤلاء في نمو القوة الإسلامية على أطراف دولتهم، تهديداً لمصالحهم ومراكز النفوذ التابعة لهم، وما يستتبع ذلك من معادلة جديدة في المنطقة، أخذت تفرض نفسها على حساب المعادلة السابقة التي انهارت أو كادت بعد هزيمة الدولة الساسانية.

ومن هذا المنظور لا يصبح التساؤل ملحّاً عن الطرف الذي اختار المعركة أرضاً وتوقيتاً، حيث أصبح كلاهما في مواجهة حتمية مع الآخر، لا سيما الطرف الإسلامي، الذي رفض العودة إلى الواقع القديم، بما في ذلك استنزاف قبائل التخوم وتوظيفها في الصراع العربي ـ العربي، الذي يعيق حرية الحركة للإسلام في منطقة شديدة الأهمية بالنسبة إليه. وكان أي اختراق لها من جانب البيزنطيين، يجد فيه النبي ﷺ تحدياً لدولته، بينما حرص هؤلاء في المقابل على وضع «حاجز» جديد أمام الأخيرة، يحول دون تسرب خطرها إلى العمق الشامي، متخذين من البلقاء على الأرجح هذه المنطقة «الحاجزة» مع الإسلام ـ ومن هنا فإن الحشود البيزنطية ـ على ما أحيط بها من المبالغة ـ بقيادة الامبراطور نفسه، تصبح مسوّغة لدى البيزنطيين، وكذلك اختيار البلقاء ساحة المواجهة، حيث اعتبرت الأخيرة خطّاً دفاعياً غير مسموح بـ «اختراقه»، فيما يتعدى الأسباب التجارية، ذلك الخطّ الذي كان الدفاع عنه من مهمات حلفائهم الغساسنة، المنتشرين جنوباً حتى البلقاء،

حيث كان أحد أمرائهم. (شرحبيل بن عمرو الغساني)، أحد الأسماء البارزة في أحداث مؤتة[١٣٠].

كسر التوازن السياسي والاقليمي

لقد كانت مؤتة تجربة دقيقة ومثيرة على المستويين السياسي والديني لدولة النبي ﷺ الصاعدة، التي طرحت نفسها قوة جديدة، قادرة على حماية وجودها أمام القوى التقليدية في مطلع القرن السابع الميلادي. وإذا كانت دولة الفرس الساسانيين قد انطوت على انقساماتها الداخلية ومعاناة جراح الهزيمة، مكتفية من نصيبها في الصراع على شبه الجزيرة، بتحقيق السيطرة على منطقة بعيدة (اليمن) عن دائرة النفوذ الإسلامي في ذلك الحين، فإن الدولة البيزنطية، كانت في المواجهة المباشرة وعلى التخوم القريبة، مما أوجد تربة خصبة للاحتكاك، بين قوة تقليدية لها نفوذها الراسخ في الشام وعلاقاتها القبلية والمصلحية الواسعة، وبين قوة جديدة، تدفع باهتمامها إلى هذه المنطقة، ولكن من خلال طرح مميز وأسلوب احتوائي غير مألوف. ولذلك فإن حملة «مؤتة» لا تبقى بالضرورة أسيرة الطابع الثاري المتداول، بقدر ما تعتبر خطوة طليعية في التاريخ العسكري للمسلمين خارج النطاق الحجازي، حين جعلت هؤلاء بعدها «يتطلعون بأعين واسعة إلى الشام[١٣١]»، حسب

---

(١٣٠) اليعقوبي، تاريخ، ج ١ ص ٢٠٤.

(١٣١) أسد رستم، الروم، ج ١، ص ٢٣٨.

تعبير مؤرخ معاصر. فلم تكن مصادفة على الاطلاق، أن يحشد البيزنطيون تلك القوة الهائلة ـ حسب مرويات مؤتة ـ في نواحي البلقاء، في وقت خرجت فيه «المدينة» من دائرة الخطر الداخلي، وأخذت تمد خطوطها تد ريجياً في داخل الأطراف الشامية، وذلك من خلال السرايا شبه الدورية التي استهدفت مراكز قبلية هامة، لا سيما «دومة الجندل». وقد جرّ ذلك إلى حالة استنفار بيزنطي في الشام، تحت تأثير هذا التحرك الإسلامي، الذي اقترب من مناطق الخطر، حيث بدت على ما يبدو البلقاء ساحته التقليدية في ذلك الحين.

ومن ناحية أخرى فإن هذا التحرك كان يثير مسألة دقيقة لدى البيزنطيين، وهي محاولة استقطاب القبائل العربية المتنصرة[١٣٢] وتحريضها على التمرد، في وقت شهد تداعي الحضور القرشي، الذي مثّل الامتداد العربي المصلحي للقبائل الشامية، بينما الإسلام آخذ في الصعود، بعد المنجزات الهامة التي حققها في الحجاز، وملامس الذات العربية، في محاولته كسر التوازن التقليدي، في المواجهة الجديدة للخطر البيزنطي، مؤدياً ذلك إلى نوع من الرضا، ربما غير المعلن لدى العرب، الذين كان لهم تراثهم في هذا المجال سواء مع البيزنطيين أم الفرس. ولم تغفل رسالة النبي ﷺ إلى هرقل، التي انطوت أساساً على الدعوة إلى الإسلام[١٣٣] وضع العرب المحليين التابعين

(١٣٢) F. R. BUHL, Mu'ta, Ency. de l'Islam. T2 P 816.

(١٣٣) الزهري، المغازي النبوية، ص ٦٠.

له[١٣٤]، مما أثار جدلاً في الشام لدى الامبراطور وحاشيته[١٣٥]، لم تثره رسالة أخرى إلى معاصريه من الملوك.

وهكذا فإن حتمية مواجهة الخطر الذي فرضته التعبئة البيزنطية الواسعة في البلقاء، كان أبرز مسوغات هذا التحرك الإسلامي المضاد، تفادياً لإثارة المشاكل الداخلية في شبه الجزيرة، وحفاظاً على الروح المعنوية التي ولّدها انتصار «بدر» وصمود «الخندق» والقضاء على اليهود، وما صاحب ذلك من ركود الصراع مع قريش في أعقاب الحديبية، لتلتقي هذه المسوغات جميعها مع شمولية الإسلام وفرادته كدعوة ودولة، وما يقتضيه ذلك من رفض العزلة واعتبار العالم مجالاً لرسالته.

---

(١٣٤) ربما كان ذكر الاريسين (الزهري، مغازي ص ٦٠) أو الأريسيين (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية، ص ١٠٩)، له علاقة بأوضاع العرب المتنصرين في الشام على الصعد الدينية والسياسية والاجتماعية. فثمة اعتقاد بأن هذه الكلمة مشتقة من «الأريوسية» (الزهري ص ٦٠ - هامش) نسبة إلى آريوس ARIUS، من قساوسة مصر وكان قد قال بخلق الابن وخلق الروح القدس (أسد رستم، الروم ج ١ ص ٥٦). وفي روايات أخرى حملت الإشارة إلى هؤلاء بعداً اجتماعياً واضحاً، حيث وردت «الأكاريين» لدى الطبري (ج ٣ ص ٨٧) وهم الذين اشتغلوا بحراثة الأرض وزراعتها أو «الفلاحين» كما وردت في كتاب آخر من النبي إلى امبراطور الروم... «وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية».. محمد حميد الله «مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدية» ص ١١٠.

(١٣٥) الطبري ج ٣ ص ٨٧.

ففي ضوء هذه المعطيات، كانت تتخذ «مؤتة» طابعها الرسالي، مثبتة على الأرض ما حملته الوفود من كتب لهرقل وحلفائه من رؤساء القبائل المتنصرة، من دعوة إلى الإسلام، كما تكتسب تلك الصفة الصدامية المتحدية لقوة عظمى هي الدولة البيزنطية، مما كان له تأثيره الجذري في تفكير المسلمين، الذين اعتبروها نهجاً وضعه النبي ﷺ، وبالتالي ينبغي متابعته والسير عليه. ولعل «ابن كثير»، كان واعياً لهذه الحقيقة، في وصفه لمؤتة بأن «هذه الغزوة كانت أرهاصاً لما بعده من غزو الروم، وارهاباً لأعداء رسول الله ﷺ»[١٣٦].

ومن هذا المنظور فإن النبي ﷺ، لا يرى في «مؤتة» اخفاقاً أو تراجعاً لمشروعه، ولكنه يجد فيها الحافز الأقوى للاستمرار في الإطار نفسه. فتكون غزوة «ذات السلاسل» إحدى النتائج المباشرة لمؤتة وحاملة دوافعها بصورة أكثر وضوحاً، وربما استمراراً عسكرياً لها. فقد ذكرت الروايات في معرض الإشارة إلى أسباب هذه الغزوة، عدة نقاط هامة في هذا السبيل، لا سيما تجنيد عدد غير قليل من شخصيات المهاجرين والأنصار[١٣٧]، الذين برزوا خاصة في الحملة الإضافية[١٣٨]

---

(١٣٦) الفصول في اختصار سيرة الرسول ص ١٧٣.

(١٣٧) الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٧٧٠.

(١٣٨) كانت بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب «وسراة المهاجرين والأنصار». المكان نفسه. ابن سعد، غزوات الرسول وسراياه ص ١٣١.

التي استلحق بها النبي ﷺ، حملة عمرو بن العاص الأولى. وكان من دوافع اختيار الأخير على ما يبدو ارتباطه بصلات من القربى مع «بلي»[١٣٩]، إحدى القبائل التي استهدفتها الحملة إلى جانب «قضاعة»[١٤٠]، حيث كانت كلتاهما بين القبائل المحتشدة مع هرقل في البلقاء[١٤١]. وعلى صعيد آخر فإن هذه الغزوة، تبرز من خلال مروية «ابن هشام» أن النبى ﷺ لا يزال يجد في قبائل التخوم، مدخلاً إلى الشام ومحاولة لـ«استئلافهم»[١٤٢]، سواء عن طريق إشعارهم بالعزة، من خلال التصدّي للبيزنطيين، أو عن طريق الاحتواء القبلي (قرابة عمرو بن العاص لبلّي عن طريق أمه)، أو عن طريق المصاهرة (زواج عبد الرحمن بن عوف من دومة الجندل) إلى آخر ذلك من الطرق التي حاول من خلالها «استئلاف» هذه القبائل المتنصرة، الدائرة في الفلك البيزنطي.

ومن المنظور نفسه، فإن تأثير «مؤتة» كان واضحاً في غزوة تبوك[١٤٣]، التي قادها النبي ﷺ وقامت في ظل ظروف قريبة الشبه بتلك التي رافقت الأولى، من حشود للبيزنطيين وحلفائهم

---

(١٣٩) ابن هشام، القسم الثاني ص ٦٢٣.

(١٤٠) الواقدي، المغازي ج ٢ ص ٧٧٠، ابن سعد، الغزوات ص ١٣١.

(١٤١) ابن كثير، الفصول ص ١٧٢.

(١٤٢) ابن هشام، القسم الثاني ص ٦٢٣.

(١٤٣) حدثت في رجب سنة تسع للهجرة. ابن سعد، غزوات الرسول وسراياه ص ١٦٥.

«متنصرة العرب»[١٤٤] في البلقاء[١٤٥]، ومواجهة حاسمة لها من النبي ﷺ، أدت إلى تحقيق ما توخاه من الحملة السابقة. فقد كان للتطورات الخطيرة التي أسهمت «مؤتة» في تسريعها وحسمها[١٤٦] تلك التي انتهت إلى «فتح» مكة والسيطرة المطلقة على الحجاز ـ بما في ذلك مناطق النفوذ القرشي على تخوم الشام ـ أن أصبح النبي ﷺ في موقع المبادر الذي يمسك بزمام التوقيت، فضلاً عن تعزيز وضعه العسكري، على نحو اختلف كثيراً عما كان عليه عشية «مؤتة» وارتفع بنسبة عشرة أضعاف عن هذه الأخيرة، حسب الرواية التاريخية[١٤٧].

وفي غمرة هذه التحولات، يقرّر النبي ﷺ التحرك نحو الشام، تاركاً وراءه جبهة داخلية متماسكة[١٤٨] ومصطحباً قوة عسكرية كبيرة، في وقت ابتعد فيه هرقل عن المنطقة[١٤٩]. ولذلك فإن أية مقاومة من القبائل العربية لم تعترض طريقه، مما يعني أنها لم تعد بعيدة عن المشروع السياسي الجديد، الذي اتضحت ملامحه ووجدت فيه ذاتها المفقودة في ظل الحكم البيزنطي الطويل. وكانت «تبوك» ـ وهي إحدى محطات القوافل على

(١٤٤) ابن الأثير، الكامل ج ٢ ص ٢٧٧.
(١٤٥) ابن سعد، الغزوات ص ١٦٥.
(١٤٦) الطبري ج ٣ ص ١١٠ وما بعدها.
(١٤٧) ابن سعد، الغزوات ص ١٦٦.
(١٤٨) المصدر نفسه ص ١٦٨.
(١٤٩) كان هرقل حينذاك في حمص. المصدر نفسه ص ١٦٦.

الطريق التجاري(١٥٠)، ووُصفت بـأنها تقع «بـين وادي القرى والشـام»(١٥١) ـ المكـان الذي انتهت إليه حملة النبي ﷺ، حيث لاقته وفود القبائل المجـاورة التي صالحتـه على «الجـزية»(١٥٢)، في الـوقت الذي أرسـل فيه خـالد بـن الـوليد لـ «فتـح» دومـة الجنـدل واجـراء اتفـاق مـع «ملكهـا»(١٥٣) الـذي ينتسب إلى كندة(١٥٤).

والواقع أن هذه «المعاهدات» التي جرت بين النبي ﷺ وكبريات القبائل في البلقاء، التي اتخذت مراكزها في «أيلة وأذرح وجرباء ومقنا» فضلاً عن دومة الجندل(١٥٥)، كانت على جانب كبير من الأهمية، وجاءت بمثابة اعتراف بالقوة الإسلامية الجديـدة، بعد أن سبقتها إلى ذلك ق يش، التي كانت لها علاقـات وعهود مـع هذه القبائل، المنتشرة على الخط التجاري أو على مقربة منه. كـما

---

(١٥٠) المقـدسي، أحسن التقـاسيم ص ١٠٧. ابن خـرداذبـة، المسـالـك والممالك ص ١٢٨.

(١٥١) ياقوت، معجم البلدان ج ٢، ص ١٤.

(١٥٢) ابن الأثير، الكامل ج ٢ ص ٢٨٠.

(١٥٣) وصف خليفة بن خياط صاحب دومة (اكيدر بن عبد الملك) بأنه «رجـل من اليمن، كان ملكاً فأخذه خـالد فقـدم به عـلى رسول اللّه ﷺ فحقن دمه وأعطاه الجزية فرده إلى قريته». تاريخ ج ١ ص ٦٤.

(١٥٤) ابن سعد، غزوات الرسول ص ١٦٦. راجع أيضاً:

V. VAGLIERI, Dûmat Al - Djandel : ıcy. de l'Islam T II P 640.

(١٥٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٧١ ـ ٧٤، ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

يصحّ اعتبارها من هذا المنظور، نواة الفتح الإسلامي الفعلي لبلاد الشام، التي أعطيت الأولوية في العهد الراشدي المبكر، تكريساً لهذه السياسة التي وضع النبي ﷺ خطوطها الأولى.

وإذا كانت «تبوك»، الإنطلاقة العملية لحركة الفتوح الشامية، فإن ثمة محصلة أساسية، أن هذه الحملة تعتبر امتداداً لسابقتها «مؤتة» وحاملة المضمون نفسه. ولعل هذه الأخيرة كانت لها فرادة ما في هذا المجال، أنها شكّلت ما يمكن أن نسميه «ضمير الفتح»، انطلاقاً من الهالة التي أحيطت بها، وما أحدثه استشهاد قادتها الثلاثة من تأثير في نفوس المسلمين، في وقت كانت المدينة لا تزال مفتوحة على عدة جبهات معادية، لا سيما الجبهة الشامية، التي أخذت تشكل تحدياً سافراً بالنسبة لدولة النبي ﷺ. وكان السكوت على هذا الواقع، يعني اعادة خلط الأوراق حتى على الجبهة الحجازية الراكدة، وبالتالي، وهو الأهم، التصدّي لمشروع النبي ﷺ في استقطاب القبائل العربية في الشام أو «استعادتهم» من الفلك البيزنطي، تمهيداً للانطلاقة الأوسع، بما يتوافق والمضمون الرسالي ومعه الطابع الشمولي للدعوة الإسلامية.

.. وتبقى كلمة أخيرة، أن خروج تلك القلة المؤمنة من المدينة، كان خروجاً سياسياً أكثر منه عسكرياً، وعبّر في حينه عن اتجاه النبي ﷺ إلى اعادة النظر في المعادلة البيزنطية التي اختلّت بعد الهجرة واعلان دولة الإسلام. وكان لا بدّ لهذه الطليعة،

أن تحدث الصدمة المطلوبة، لدى البيزنطيين على الأخص، بأن هذه المواجهة ليست إحدى الاغارات البدوية المألوفة، وإنما هي جبهة متماسكة ووحدة دينية وسياسية، في وجه التحديات، مهما انطوت عليه من حشود عسكرية أو صدام مباشر مع دولة كبرى، إذا كانت المستهدفة في هذا التحدي، استقلالية وحرية الحركة للدولة الإسلامية في عالمها الخاص.

مصادر ومراجع البحث

مصادر

القرآن الكريم

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي
- أسد الغابة في معرفة الصحابة. القاهرة ١٢٨٥ هـ
- الكامل في التاريخ، دار صادر - بيروت ١٩٧٩ .

ابن إسحاق، محمد ابن إسحاق المطلبي
- كتاب السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار. دار الفكر، بيروت ١٩٧٩ .

ابن بكّار، أبو عبد الله الزبير بن بكار
- الأخبار الموفقيات. تحقيق سامي العاني - مكتبة العاني - بغداد (د . ت).

ابن حبيب، أبو جعفر محمد بن حبيب الهاشمي البغدادي .
- كتاب المحبّر، تحقيق ايلزه ليختر شتيتر. دار الآفاق الجديدة، بيروت (د . ت).

ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد.
ـ جوامع السيرة. تحقيق: إحسان عباس ـ ناصر الدين الأسد. دار المعارف بمصر (د. ت).

ابن حوقل، أبو القاسم بن حوقل النصيبي.
ـ كتاب صورة الأرض ـ مكتبة الحياة ـ بيروت (د. ت).

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله.
ـ المسالك والممالك. مكتبة المثنى ـ بغداد (د. ت).

ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون المغربي.
ـ المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٩.

ابن خياط، خليفة بن محمد العصفري.
ـ تاريخ خليفة بن خياط. تحقيق سهيل زكار. دمشق ١٩٦٩.

ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر.
ـ كتاب الاعلاق النفيسة. مطبعة بريل ـ ليدن ١٨٩١.
ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد البصري الزهري.
ـ الطبقات الكبرى ـ دار صادر ـ بيروت (د. ت).
ـ غزوات الرسول وسراياه. تقديم أحمد عبد الغفور عطار. دار بيروت ١٩٨١.

ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح محمد الشافعي.
ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار المعرفة ـ بيروت (د. ت).

ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي.
ـ العقد الفريد. تحقيق محمد سعيد العريان. المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ١٩٥٣.

ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة اللّٰه.
ـ تاريخ دمشق الكبير. تحقيق صلاح الدين المنجد ـ دمشق ١٩٥١.

ابن كثير، أبو الفداء الحافظ.
ـ الفصول في اختصار سيرة الرسول ـ دار القلم، دمشق ـ بيروت ١٤٠٠ هـ.

ابن الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب.
ـ كتاب الأصنام، تحقيق أحمد زكي، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٥.

ابن قتيبة (ينسب له) الإمامة والسياسة. المكتبة التجارية ـ القاهرة (د. ت).

ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الافريقي المصري.
ـ لسان العرب. دار صادر ـ بيروت (د. ت).

ابن هشام، أبو محمد عبد الملك.
ـ السيرة النبوية، تحقيق: السقا، الأبياري، شلبي. القاهرة ١٩٥٥.

أبو عبيد، القاسم بن سلام
- كتاب الأموال. تحقيق محمد خليل هراس. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة ١٩٦٢.

أبو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر
- تقويم البلدان. تصحيح رينود والبارون ديسلان. طبعة باريس (د. ت).

الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد اللّٰه بن أحمد.
- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق رشدي ملحس. دار الأندلس بيروت (د. ت).

الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين
- مقاتل الطالبيين، تقديم كاظم المظفر، المكتبة الحيدرية - النجف ١٩٦٥.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي.
- أنساب الأشراف. تحقيق إحسان عباس - بيروت ١٩٧٩.
- أنساب الأشراف، تحقيق محمد حميد اللّٰه، دار المعارف بمصر ١٩٥٩.
- فتوح البلدان. تحقيق رضوان محمد رضوان. المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة (د. ت).

الزهري، محمد بن مسلم بن عبد اللّٰه بن شهاب.
- المغازي النبوية. تحقيق سهيل زكار - دار الفكر - دمشق ١٩٨١.

السمهودي، نور الدين علي بن أحمد المصري.
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٩٥٥.

السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي.
- الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تقديم طه عبد الرؤوف سعد. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة (د. ت).

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير
- تاريخ الأمم والملوك. مكتبة خياط - بيروت (د. ت).
- تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر ١٩٦١.

الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين.
- كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. تصحيح بولس زاويس المطبعة الجمهورية - باريس ١٨٩٤.

الفاسي أبو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد المكي.
- شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. تحقيق لجنة من كبار العلماء والأدباء. مكتبة النهضة الحديثة - مكة ١٩٥٦.
- العقد الثمين بأخبار البلد الأمين. مطبعة السنّة المحمدية - القاهرة (د. ت).

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود.
- آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر - بيروت (د. ت).

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي
- نهاية الإرب في معرفة أنساب العرب. تحقيق علي الخاقاني - بغداد ١٩٥٨.

الكلاعي، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي.
- الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء. تحقيق مصطفى عبد الواحد. مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٠.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين.
- التنبيه والإشراف. دار التراث، بيروت ١٩٦٨.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق يوسف أسعد داغر. دار الأندلس - بيروت ١٩٧٣.

المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد.
- كتاب الجغرافيا. تحقيق اسماعيل العربي - بيروت ١٩٧٠.

المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله البشاري.
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل - ليدن ١٩٠٩.

الواقدي، محمد بن عمر بن واقد.
- كتاب المغازي، تحقيق مارسون جونس - مطبعة جامعة اكسفورد (د. ت).

ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي.
- معجم البلدان، دار صادر - بيروت ١٩٧٩.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب.
- تاريخ اليعقوبي - دار صادر، بيروت ١٩٦٠.
- كتاب البلدان - طبعة ليدن ١٨٩١.

مراجع :

بيضون، إبراهيم
- الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في اشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨٣.
- الدولة الأموية والمعارضة. دار الحداثة - بيروت ١٩٨٠.
- ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري. دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٩.

حميد الله، محمد
- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس - بيروت ١٩٨٣.

خليل، عماد الدين
- دراسة في السيرة. دار النفائس - بيروت ١٩٧٨.

رستم، أسد
- الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب. دار المكشوف - بيروت ١٩٥٦.

السيّد، رضوان
- الأمة والجماعة والسلطة. دار اقرأ - بيروت ١٩٨١.

عبد الحميد، سعد زغلول

ـ تاريخ العرب قبل الإسلام. دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٦.

علي، جواد

ـ المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٨.

العلي، صالح

ـ امتداد العرب في صدر الإسلام. مؤسسة الرسالة. بيروت ١٩٨٣.

الكتاني، عبد الحي

ـ نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية. بيروت (د . ت).

كرد علي، محمد

ـ كتاب خطط الشام. المطبعة الحديثة ـ دمشق ١٩٢٥.

مرمرجي، الأب أ . س الدومينيكي

ـ بلدانية فلسطين العربية، مطبعة جان دارك ـ بيروت ١٩٤٨.

وات، مونتغمري

ـ محمد في المدينة ترجمة شعبان بركات. المكتبة العصرية ـ صيدا (د . ت).

ولفنسون . أ

ـ تاريخ اليهود في بلاد العرب. ترجمة لجنة التأليف والنشر ـ دار الاعتماد ـ القاهرة ١٩٢٧.

مراجع أجنبية :

Diehel, C. H.

- Byzance, grandeur et décadence . Paris 1914

Donner, F.M.

- Mecca's food supplies and Muhammad's Boycott Journal of the Economic and social History of the Orient Vol XX. part III S. D.

O, Leary . D.

- Arabia, before Muhammad. London 1927.

Lammens .H.

- L'arabie occidentale avant L'Hégire. Beyrouth. 1928.
- La mécque à la veille de L'Hegire. Bey. 1930.
- La République marchande de la mécque vers l'an 600 de notre ère. bulletin de l'institut egyptien. Alexandrie 1910.

Rabbath, E.

- Mahomet, prophéte arabe et fondateur d'état. beyrouth 1981

مجلات ودوريات

السيد، رضوان

- الوعي التاريخي العربي والكتابة التاريخية العربية - مجلة الفكر العربي - العدد ٢٧ - معهد الإنماء العربي ١٩٨٢.

- من الشعوب والقبائل إلى الأمة. مجلة الوحدة ص ٢٥ عدد ٤ - بيروت ١٩٨٠.

علي، صالح

- تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة. مجلة المجمع العلمي العراقي عدد٥٧ - بغداد ١٩٦٩.

- العطاء في الإسلام - مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ٢٠ بغداد ١٩٧٠.

فكا، ف

- زيد بن حارثة. دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ١١ ترجمة: الفندي، الشنتاوي، خورشيد، يونس. انتشارات تهران (د. ت).

Buhl, F. R.

- Mu'ta. Encyclopédic de L'Islam. Leiden E. J. Brill - Paris C. Klincksieck 1936.

Vaglierie, V.

- Ḏumat Al - Djandal. Ency.de L'Islam Leiden. E. J. Brill - 1936.

﴿واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرقوا﴾.

آل عمران الآية ١٠٣   ٣٠

﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فآجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾.

سورة إبراهيم الآية ٣٧   ٢٠

﴿غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين. للّه الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾.

سورة الروم الآيات ١ ـ ٤   ٨٤

﴿لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيراً﴾.

سورة الأحزاب الآية ٢١   ٧

﴿لإيـلاف قـريش إيـلافهم، رحلة الشتـاء والصيـف، فليعبـــدوا ربّ هـذا البيت، الـــذي أطعمهم من جـوعٍ وآمنهم من خوف﴾.

سورة قريش الآيات ١ ـ ٤ ٣٢

٢ ـ الأعلام

(ز)

(س)

(ش)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ق)

(هـ)

(و)

(ي)

٣ ـ الأماكن

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(هـ)

(و)

(ي)

الفهرس



كتب المؤلف

١ ـ تاريخ العرب السياسي، من فجر الاسلام حتى سقوط بغداد دار الفكر ١٩٧٤ .

(٢) التوّابون (ط ١) دار التراث الاسلامي ١٩٧٥ (ط ٢) دار التعارف ١٩٧٨ .

(٣) الدولة العربية في إسبانيا، من الفتح حتى سقوط الخلافة (ط ٣) ١٩٨٦ دار النهضة العربية (ط ١) ١٩٧٨ (ط ٢) ١٩٨٠

(٤) ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري دار النهضة العربية ١٩٧٩ .

٥ ـ صفحات من تاريخ جبل عامل (مع آخرين) المجلس الثقافي للبنان الجنوبي ـ ١٩٧٩ .

٦ ـ الدولة الأموية والمعارضة .

(ط ١) دار الحداثة ١٩٨٠ ـ (ط٢) المؤسسة الجامعية للدراسات ١٩٨٥ .

٧ ـ الحجاز والدولة الاسلامية، دراسة في اشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري المؤسسة الجامعية ١٩٨٣ .

٨ ـ تكوّن الاتجاهات السياسية في الاسلام، من دولة عمر إلى دولة عبد الملك. دار إقرأ ١٩٨٥ .

٩ ـ اتجاهات المعارضة في الكوفة، دراسة في التكوين الاجتماعي والسياسي ـ معهد الأنماء ـ بيروت ١٩٨٦ .

١٠ ـ من الحاضرة. . . إلى الدولة في الاسلام الأول دار إقرأ ١٩٨٦ .







المؤلف

أستاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية.
أستاذ في قسم الدراسات العليا في جامعة القديس يوسف.
أمين سرّ اتحاد الكتاب اللبنانيين.
عضو الهيئة الادارية في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي
عضو هيئة التحرير في مجلتي «دراسات» و «أبحاث» (الجامعة اللبنانية).
شارك في مؤتمرات وندوات علمية وأكاديمية في لبنان وسوريا والأردن والمغرب.

